محمد السنوسي

لا شيء يحدث يوم الجمعة

رواية

عصير الكتب

لا شيءَ يحدُثُ يومَ الجمعة

عصير الكتب

عصير الكتب للنشر و التوزيع

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

الطبعة الأولى: يونيو / 2021م

رقم الإيداع: 2021/8798م

الترقيم الدولي: 978-977-992-160-0

المؤلف: محمد السنوسي

تدقيق لغوي: عماد غزير

تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

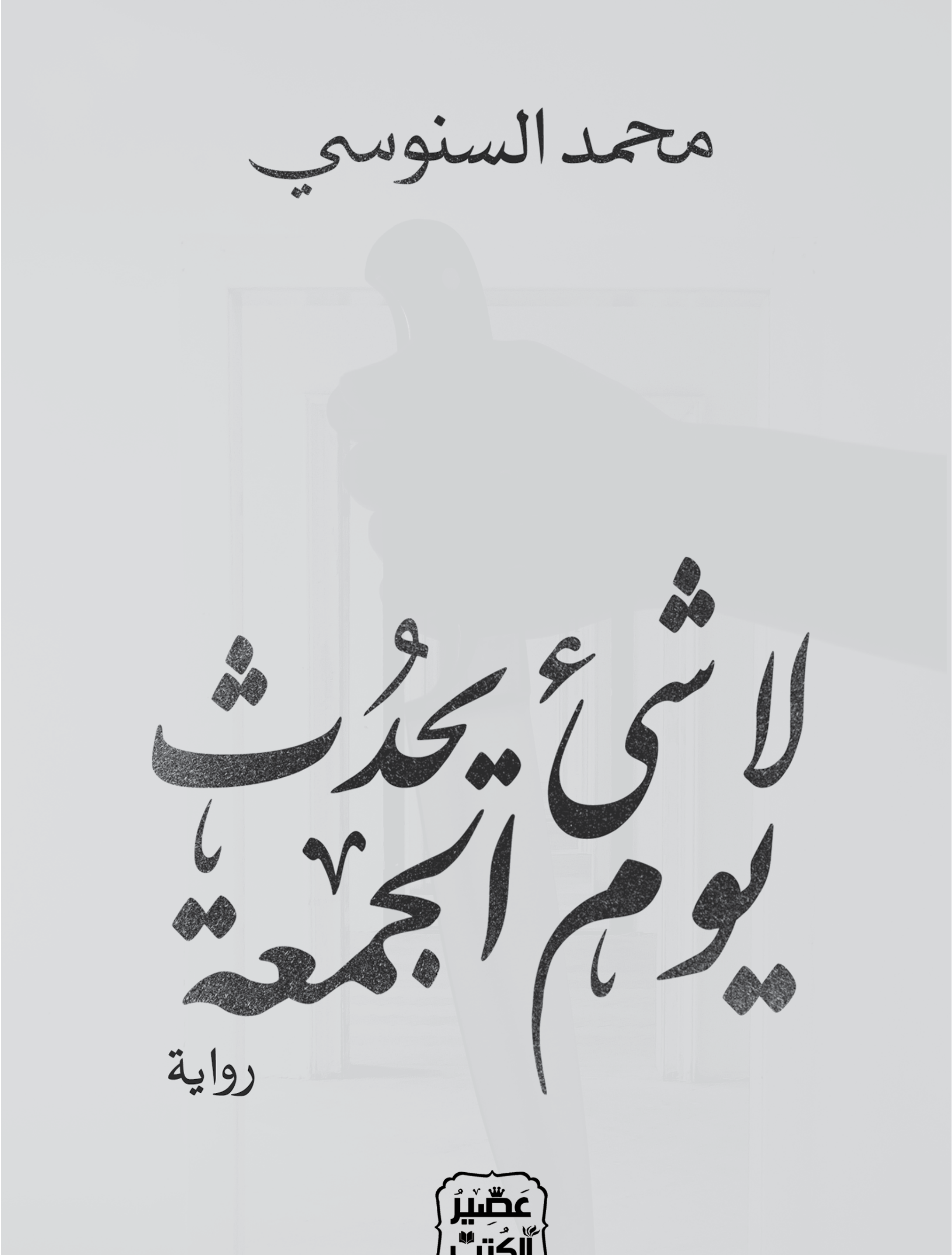
محمد السنوسي
لا شيء يحدث يوم الجمعة
رواية
عصير الكتب

ذات جُمُعة..

وجهها فقط كان مصبوغًا بحمرة

قاتمة كوردة قُطفت للتوّ

(1)

لم أستيقظ يوم الجمعة مبكرًا منذ المرحلة الثانوية تقريبًا، إنّه الصباح الوحيد الذي اعتدت أن يبدأ كما يجب أن يبدأ، كوب الشاي مع نصف سيجارة أثناء مطالعة أحدث الأخبار على الهاتف قبل أن أسقط في المغطس الممتلئ بالماء الساخن صيفًا أو شتاء منتظرًا أن تبدأ المآذن في بثِّ سور القرآن إيذانًا باقتراب موعد الصلاة، فأخرج لأمرّ على قسم الشرطة في طريقي إلى المسجد وكالعادة لا أجد جديدًا، فاليوم الجمعة، ولا شيء يحدث يوم الجمعة.

سيشكل اليوم سابقة في حياتي، وربما في حياة القرية كلِّها، فسيقال قبل الجمعة التي قتل فيها النائب خيري العمَّاري، أو بعد الجمعة التي قتل فيها النائب، وهكذا سيدخل هذا اليوم التاريخ ولن يخرج.

عندما تلقيت خبر مقتل عضو مجلس النواب المخضرم خيري العمَّاري على الهاتف من مساعدي، تخيلت للحظة أنّه حلم، فالرجل يحيط نفسه ومسكنه بجيشٍ من الحراس، خاصةً في أيامٍ مثل هذه تسبق إجراء الانتخابات.

صوت شوقي الهالع حرك الهاتف النائم على خدي، لا أبالغ إن قلت إنَّ ذبذبات صوته كانت كأصابع سمينة تدغدغني بسماجة كي أستيقظ، الفزع الواضح في نبرته والجلبة التي ميزتها في خلفية المكالمة تكفلت بطرد النوم من عيني.

قال: «وجد مقتولًا في المضيفة البحرية»، ثم أكمل وهو يلهث: «عثر عليه مساعده جلال راقدًا على وجهه ولم يبلغ عن سرقة».

صوت سرينة عربة الشرطة يفرِّق الأطفال الذين يلعبون الكرة على الطريق كيدِ لصٍّ امتدت إلى عشة دجاج، فيقفزون مذعورين يمينًا وشمالًا، لكنّها في نفس الوقت جذبت إلينا أهالي القرية المكوّمين تحت جدران البيوت يتبادلون أحاديث النميمة التي لا شك من بينها خبر الجريمة.

لم تعد عربة الشرطة تسير بمفردها إلى سراي النائب، أصبحنا موكبًا تتقدمه العربة ثم سائقو الدراجات البخارية، ثم سائقو الدراجات الهوائية، ثم راكبو الخيل والبغال والحمير، ثم المترجلون، ثم الأطفال الذين زهدوا في لعب الكرة ليلحقوا بحدث غير مسبوق في طفولتهم.

اصطفت على طول الطريق إلى سراي العمَّاري اللافتات البيضاء التي تحمل اسمه ورمزه الانتخابيّ كما هي العادة في مثل موسم الانتخابات النيابية، أعداد كبيرة تحجب

السماء، كميّات وفيرة من القماش تكفي لصنع ستائر تحيط القرية كلَّها.

سمح لنا طوق الجنود المحيطين بالسراي بالدخول واحتجزوا بقية الموكب، كانت اللافتات هنا أيضًا، تسلقت أسوار السراي، الشرفات، أشجار حديقته التي اعتُنِي بها فبدت كإحدى حدائق القصور الفرنسية القديمة، لم يسلم من هجوم اللافتات القماشية سوى جدران المضيفة بنوافذها المثلثة وزجاجها الملوّن.

ضرب العساكر أقدامهم في الأرض يؤدون التحيَّة العسكريَّة، فكست وجوه العاملين في السرايا صفرةٌ مريبةٌ، وجهها فقط كان مصبوغًا بحمرة قاتمة كوردةٍ قطفت للتوّ حين أطلت من تحت جناح مربيتها، تعتصر بين يديها دميةً بنصف حجمها.

قال شوقي: «ابنته الوحيدة، في الثامنة من عمرها».

تخطيت صفّ الخدم المرتجفين الذين يقتربون من بعضهم تارة حدّ الالتصاق، وتارة يتجافون وكأن بينهم مجذوم، توقفت أمام جلال مساعد القتيل، رأيته مرارًا بصحبته عندما كانا يأتيان إلى القسم لإنجاز بعض المهمات، كانت عيناه هو الآخر تترقرق فيهما الدموع، بدا غير قادر على الوقوف، فمال على ساقه اليسرى في حين ارتفعت كتفه اليمنى بطريقة لافتة، حتى إن هاتفه الذهبيّ كاد أن يسقط من جيب الجلباب العلويّ.

همس شوقي في أذني: «يعاني من ضمور العضلات، لقد أخبرني منذ قليل»، أشرت إلى كرسيٍّ مُستندٍ إلى الحائط خلفه، قلت: «يمكنك الجلوس يا جلال».

أزاح أحد الجنود باب المضيفة البحرية ذات النوافذ المثلثة التي تنعكس داخلها أشعة الشمس بألوان شتى بفضل الزجاج المعشّق الذي يكسو شرفاتها، فبدت كخلوة راهب أكثر منها غرفة يستقبل فيه عضو برلماني أبناء دائرته.

خطان متعرجان يمتدان من باب المضيفة إلى داخل الغرفة، بينهما طبقة رقيقة رطبة من الدّم بلون باهت، وكأنها نقشت بفرشاة دهان. الجثة مطروحة على وجهها على الأرض المغطاة بسجادة من المخمل الأسود اللامع، احتل جسد القتيل الضخم أغلب مساحتها، كانت كلتا يديه ممدودة إلى الأعلى فوق رأسه، ليس بينهما وبين مكتبه سوى فراغٍ محدودٍ انزلقت فيه عمامته وطاقيته البيضاء فبدت كرأسٍ آخر منفصل عن جسده.

لا توجد إصابات ظاهرة كالتي تنتج عن التشاجر أو الدفاع عن النفس، وليس في الغرفة ما يدلّ على اقتحام أو شجار، كلّ شيء في موضعه كما يجب أن يكون، الأوراق مرتبة في ملفات، الأباجورة الفضيّة ذات المصباح الواحد تلمع، منفضة السجائر الزجاجية فارغة، لا شيء يستدعي الملاحظة سوى حقيبة سفر متوسطة الحجم تحت أقصى نافذة في الغرفة.

أعدّ شوقي غرفة تحقيق نموذجية في المضيفة القبلية كي نتجنب مسرح الجريمة وبهو السرايا، وبقية الغرف التي تطلّ نوافذها على القرية، لم أعد أسمع قرآن الجمعة، ربما عطّلوا الصلاة اليوم انشغالًا بما حدث.

أدخلوا الخادمة المسؤولة عن التنظيف، في الخمسين من عمرها، تلف شالًا بلون القهوة المحروقة حول رأسها ووجهها الصارم. كتفاها عريضان ككتفي لاعبة رياضية، وفي عينيها شراسة واضحة.

- منذ متى تعملين عند القتيل؟

- قبل عشرين عامًا، أو تزيد.

- وأين عملت قبل ذلك؟

- عملت في صناعة الطوب مع زوجي، فلما توفاه الله عملت لدى الحاج.

- متى رأيت القتيل آخر مرة؟

- صباح أمس، طلبت منه أن أرتب المضيفة البحرية فرفض، قال إنه ليس لديه وقت ليغادرها ولو لدقيقة.

- ثُمَّ؟

- انصرفت إلى تنظيف بقية السرايا، غرفة ليلى، غرفة الحاج، البهو، وهذه المضيفة، وعندما انتهيت غادرت إلى بيتي.

- ما رأيك في القتيل؟ هل يستحق ما حدث له؟

- يا سيدي الضابط، لقد كفلني هذا الرجل وأطفالي الأيتام حتى تعلّموا وصارت لهم وظائف، ومع ذلك فلم أترك خدمته اعترافًا بفضله. لا أعرف لم يقتل رجل مثله؟

- ومن تظنين أنه يفعل؟

زمت شفتيها وضيقت عينيها حتى خلت أنها ستقول اسم القاتل مباشرة، لكنَّها عادت إلى هيئتها مرة أخرى، وعقدت ذراعيها على صدرها تحت الشال الفضفاض، ثم قالت:

- أولاد الحرام كُثُر.

نظر شوقي نحوي وكأنه يطلب إذنًا بالضغط عليها، فهززت رأسي ليصرفها، وعندما خرجت أخبرته أن يؤجل ضغوطه حتى نستكمل باقي الإفادات لعلّ بعضها يكمل بعضًا.

طلبت من شوقي أن يبدأ بالعاملين الأكبر سنًّا، أو الأسبق إلى خدمة القتيل، فأدخل رجلًا كعود قصبٍ ممصوصٍ، يبدو في الثمانين من عمره، أسمر الوجه، يهتزّ فكّه السفليّ على الدوام رغم أنّه لم يفتح فمه بعد. أدركت من النظرة الأولى لهيئته أنّه ربما يرعى حديقة السرايا، إذ كان الطين ملتصقًا بقدميه الحافيتين.

- هل تعمل في زراعة الحديقة؟

- نعم يا سيدي، أزرعها منذ كنت صبيًّا مع والدي.

- إذن أنت تعمل منذ وقت طويل لدى القتيل؟

- عملت عند والده رحمه الله، ثم أكملت العمل عنده.

- ماذا تظنّ أنه حدث؟

- إنّها قريتنا ذات الألف وجه.

- لا أفهم.

- ولا أنا.

نظرت إلى شوقي لعلّه فهم شيئًا من حكمة هذا الشيخ المتفلسف، فهزّ رأسه نافيًا، أشعلت سيجارة، ونفخت دخانها فوق رأسه، منتظرًا أن يكمل حديثه لكنّه لم يفعل.

- هل تدرك أننا نحقق في مقتل النائب خيري العمَّاري؟

- أدرك ذلك، فقد جلست أمام محقق مثلك منذ سنوات بعيدة، كان يحقق هو الآخر في مقتل الأب. سألني وأجبته، ثم مضى إلى حاله، ومضت الدنيا إلى حالها حتى أجلستني أمامك لتحقق معي في مقتل الابن.

كتبت لشوقي في ورقة أن يتحقق من قضية مقتل والد الضحية، فانتحى جانبًا في نهاية المضيفة ليجري اتصالاته.

- هل تعتقد أن هناك علاقة بين القضيتين؟

- أليست هذه وظيفتك؟

- ولكنّك تعيش في هذه السرايا منذ زمن طويل، وربما لديك ما يفيد التحقيق.

- ما تعلمته من الزراعة أن الأمر كلَّه يعود إلى الجذور. الجذور هي التي تبقى في الأرض بعد أن تُقطع الجذوع وتُنتزع الأفرع وتسقط الأوراق. ابحث دائمًا عن جذور الأشياء تعرف أصولها، ولكن احذر، فالتنقيب في الأعماق كما قد يكشف لك عن الجوهر المدفون، فقد يعميك تراب الرديم عن الواضح المكشوف.

لم أستفد معلومة واحدة من الكلام المُلغز للبستاني الهرم، إذا كان يريد أن يقول إن القضيتين مرتبطتان فلم لا يفعل ذلك مباشرة؟ إذا كان يعلم أن حلَّ قضية مقتل خيري العمَّاري في أوراق قضية أبيه، فلم كل هذه الطنطنة؟

صرفه شوقي برفق بعد أن لاحظ أنني أحدق إلى فكّه الهزاز شاردًا، دون أن أوجّه له أسئلة، ودون أن يبدو عليه الاستعداد لقول المزيد.

قال شوقي: «كلامه صحيح، قتل والد خيري العمّاري منذ ثلاثة وأربعين عامًا بعد نزوله من القطار العائد من العاصمة. أطلقوا عليه النار على رصيف المحطة أمام أعين زوجته وابنه خيري الذي كان في الخامسة عشرة من عمره، قتلوه وسط عشرات من أفراد عائلته الذين كانوا في انتظاره، وفروا هاربين»، سألته: «من هم؟»، قال: «لم تثبت التحقيقات وقتئذٍ التهمة على شخصٍ بعينه، وإن كانت الشبهات حامت حول عائلة المنشاوي نظرًا للعداء التاريخي بين العائلتين بسبب المنافسة على المقعد النيابيّ».

دخل جلال يمشي على أطراف أصابعه، لم ألحظ هذه المشية عندما كنت أراه في القسم، بدا لي كأنّه يتصنَّع، طلبت منه أن يسحب كرسيًّا ليجلس، فأدار عينيه في المضيفة ثم قال «أفضل الوقوف»، نظرت إلى شوقي، فخفض نظره، فهم أني أتهمه بالسذاجة لأنه صدّق أن الوقوف طويلًا يتسبب في تألم جلال لضمور عضلاته.

قال جلال وكأنه كان يرقب تلك النظرات «معذرة سيدي، لو حملت أحد هذه المقاعد الضخمة من نهاية المضيفة إلى هنا سيكون عليّ أن أظلّ بقية اليوم في الفراش، ولا شك أنّ اليوم لا يحتمل ذلك».

ارتسمت على وجه شوقي نصف ابتسامة لم يستطع كتمها، في حين شعرت بخيط من عرق يتحدر بطول ظهري. قلت: «لا بأس»، ووضعت رأسي في ملف الأوراق قبل أن أطرد حرجي، وأسأله:

– كنت أول من رأى الجثة، أليس كذلك؟

– بلى، وكنت آخر من رأيته أمس.

– من أخبرك أنك آخر من رأيته؟ لماذا أنت متأكد إلى هذه الدرجة؟

نظر جلال إلى السقف ثم قال «هكذا يجب أن يكون، إننا نبدأ معًا وننتهي معًا»، «أمرّ عليه في غرفته في الصباح، أساعده على ارتداء ملابسه، أحمل له الجرائد، ثم ننزل إلى المضيفة أو نخرج في جولات انتخابية».

– إذًا تصحبه من غرفته صباحًا، وتودعه فيها ليلًا؟

– هذا صحيح.

- وهل فعلت ذلك ليلة أمس؟

- هذا صحيح أيضًا.

- يبدو أنّك مقرب منه؟

- هذا صحيح أيضًا، لقد كفلني الحاج منذ وفاة والدي وقدوم أميّ للعمل هنا، كان عمري وقتها سبع سنوات تقريبًا.

- انتظر. هل تعمل أمك هنا؟

- هذا صحيح أيضًا، لقد سبقتني في الدخول إليكم.

رميت شوقي بنظرة اتهام بشكل مباشر هذه المرة، فلم يذكر التقرير المكتوب الذي قدمه أن عاملة النظافة هي أم جلال.

- منذ قدومي إلى فيلا الحاج أقوم بنفس المهام، أقوم بما لا يقوم به ابن زوجته ناصر ولا المحامي ولا أحد، كنت كمثل ابنه الذي لم ينجبه.

- حسنٌ. هذا سيساعدنا كثيرًا. لا بد أنك تعرف أعداءه، أو الذين يرغبون في التخلص منه.

- هذا صحيح أيضًا.

كدت أن أعترض على هذه اللازمة المزعجة في كلامه، لكني تغاضيت عنها منتظرًا أن يفصح عمّا يقودنا إلى تضييق دائرة الاشتباه.

- تلقى الحاج في الأيام الأخيرة رسائل تهديد صريحة ليترك مقعد الدائرة الانتخابية لعائلة المنشاوي، كان يعرض هذه الرسائل التي تأتيه على الهاتف على محاميه في العاصمة وبعض أصدقائه، فيقنعونه أنها مجرد تهديدات، لكني حذرته، أخبرته أنّها المرة الأولى التي يتجرأ فيها أحد على إرسال تهديد بالقتل على هاتفه طوال عشرين عامًا، فضحك وقال لم تكن هناك هواتف تستقبل الرسائل منذ عشرين عامًا.

قبل يومين تلقى رسالة أخرى أكثر جرأة، تتوعده أنّه لن يصل إلى يوم الانتخابات مطلقًا، كتبوا له سيكون صندوق الموتى الصندوق الوحيد الذي سيكتب عليه اسمك، أخذت منه الهاتف وعرضت الرسالة على ابن زوجته ناصر فشرد طويلًا، ثم قال جملة لن أنساها أبدًا، قال «لقد تهيأت الظروف، خاسر من يفوت مثل هذه الفرصة».

- وأين ناصر الآن؟

- لقد اختفى، حاولت الاتصال بهاتفه بعد إبلاغكم بالجريمة فلم يردّ، ذهبت إلى فيلته، فأخبرتني زوجته أنّه لم يبت في المنزل.

عندئذٍ وضعت كفها في كفي

وسارت تدندن بأغنية لم أسمعها.

(2)

في الممر إلى المضيفة القبلية وقف أبناء أعمام الضحية، سبعة رجال لا يقلون ضخامة عن ابن عمهم المقتول، يرتدون جلابيب الصوف الداكنة، وفوقها عباءات سوداء ثقيلة كالملاحف، ويغطون رؤوسهم بالعمائم البيضاء وكأنهم جبال فحمٍ غطت قممها الثلوج.

كانوا يدخنون بشراهة مطرقين إلى الأرض كمن يبحث عن طريق النجاة من متاهة، حتى إنهم لم ينتبهوا إلى خروجي إليهم، قلت ممررًا كفي عليهم «من منكم سيحلّ عليه الدور؟»، تبادلوا النظرات، ولم يبد عليهم أنهم قد فهموا سؤالي، أضفت «أقصد من سيكون عليه الدور في الترشح للانتخابات القادمة؟».

قال أحدهم: «ابن عمّنا المهندس جابر»، انتظرت أن يخرج من وسطهم، أكمل وهو يختلس النظر إليهم «لم يأت بعد».

قدَّم كُلٌّ منهم حُجّةَ غيابٍ قويةٍ عن ليلة أمس وصباح اليوم، إذا صحّت فسوف تكون كافية لاستبعادهم من دائرة الاشتباه الأولى على الأقل. صرفناهم وجلسنا ننتظر حضور كبير عائلة العمَّاري الجديد.

قلت لشوقي: «أريدك أن تفحص كلّ حجة غياب بدقة، القضية لها أبعاد خطيرة»، قال وهو يعض على شفتيه: «أفهم ذلك جيدًا، سرعة القبض على القاتل سوف تجنبنا حربًا أهلية».

رنّ هاتف شوقي بنفس النغمة المزعجة التي لا يرغب في إبدالها، تقلّصت ملامح وجهه، ورأيته يدوّن على ورقة أمامه بعض التفاصيل، قال «عثروا على طفلة حديثة الولادة تحت مقعد أحد القطارات»، سألته: «هنا في القرية؟»، أجاب: «هذه سابقة، يبدو أن هذه جمعة استثنائية».

على باب قطار الدرجة الثالثة المهترئ كثوب متوارث، تكوّم المئات من أجل الحصول على فرصة النظر إلى الطفلة، لالتقاط طرف خيط القصة، ليؤلف بعدها كُلٌّ منهم حكاية كما تنسج العنكبوت بيتها.

رفع الحشد أكفّهم بأجهزة الهواتف المحمولة بمجرد دخولنا من باب المحطة، وكأنهم مؤقتون على لحظة ظهورنا، هل يفعلون ذلك تعاطفًا مع الطفلة المتروكة؟ هل هم غاضبون حقًّا من هذه الجريمة؟ هل يشغلهم التفكير في المصير المجهول للطفلة لهذه الدرجة؟

أشار فرد مباحث السكة الحديد إلى المكان الذي وجدها فيه، قال ويداه ترتجفان: «كانت محشورة تحت مقعد في منتصف العربة الأخيرة للقطار، كان يمكن أن تموت مختنقة في هذا المكان».

الطفلة ترقد في سلَّة منسوجة يدويًّا من الخوص المخضب، تُحمل بواسطة يدين من ليف النخل، كَشفتُ الغطاء عن وجه الطفلة وجسمها، ثم أعدته سريعًا، أشاح الجميع بوجوههم إلى الناحية الأخرى، سقط رجل الأمن الذي وجدها على أقرب مقعد، احتجنا بضع دقائق لنستعيد قدرتنا على مواصلة الكلام والنظر إلى وجوه بعضنا.

قلت: «جسد الطفلة مشوّه تمامًا»، قال شوقي: «هذه تشوهات خِلقية»، وأضاف «الرأس ملتصق بالجسم، لا وجود للرقبة، الأطراف قصيرة جدًّا، والأصابع ملتصقة في كلتا الكفين والقدمين، والبطن منتفخ على نحو مزعج».

قال رجل الأمن وقد انتقلت الرجفة من يديه إلى صوته «وجدت هذا المظروف بجوارها في السلّة»، كانت رسالة من أهل الطفلة مع مبلغ ماليّ زهيد، دفعت الرسالة إلى شوقي «أهل الخير الكرام، أضع طفلتي بين أيديكم أمانة، كما سترون إنها ليست طفلة عادية، لو كانت كما تمنّيت لرقدت في حضني الآن وللأبد. لقد جاءت على غير ما رجوت، لا أستطيع النظر إلى وجهها أو جسدها، أشعر بالاشمئزاز، لو علمت أنّها ستخرج إلى الحياة بهذه الصورة ما أبقيتها في رحمي تسعة أشهر.

ستقولون عنّي مجرمة، أو لا أستحق الأمومة، أو ما ذنب الطفلة؟ لكن ما ذنبي أنا؟ لماذا أقبل أن يكون أول حظي من الأبناء طفلة مشوّهة؟ ألا أستحق طفلة جميلة بعد هذه المعاناة الطويلة في الحمل والولادة؟

لماذا سيكون عليّ أن أراها كل يوم كجريمةٍ حيّةٍ شاركت فيها؟ لقد فكرت أن أنهي حياتها في نفس اللحظة التي رأيت فيها تشوهها، لكني قررت أن أمنحها فرصة أخرى مع غيري، ربما هناك من لديه الطاقة على تحمّل هذه البشاعة.

لقد أخبرت والدها المسافر أنها توفّيت بعد ولادتها، سيمرّ الأمر، وستجد أفضل منّي ليراعيها، إذا احتفظ بها أحدكم فليخبرها يومًا أنّ أمها تعتذر، تعتذر إليها من قلبها.

ملاحظة: أسميتها حسناء».

أنهينا المحضر، وأسئلة الأم تتردد في عقولنا، قال شوقي «اختبار صعب للوالدين»، لم أجد ما أجيبه به، قدّرت أن لشوقي أطفالًا، ولا شك قد تخيّل نفسه في نفس الموقف.

وقفت على حافة باب القطار، نظرت إلى رؤوس الحشد المتجمهر انتظارًا لبقيّة القصة، أيديهم المرفوعة بكاميرات الهواتف، قصرت أن تطلب رعاية الطفلة المتروكة أو

كفالتها، سينتهي الأمر بمنشور على حسابات مواقع التواصل الاجتماعي مع رمزٍ يعبر عن الغضب أو وجه باكٍ، وسيمضي كلٌّ منهم في طريقه.

أمرت النيابة بإيداع الطفلة المستشفى العام في المدينة، مع استمرار التحريات للوصول إلى أهلها.

عدنا إلى سراي العمّاري محزونين، ولجنا المضيفة القبلية وسواد يغشى أعيننا، لم نر أحدًا في الطريق، لم نلحظ وقوف جابر العمَّاري على باب المضيفة منتظرًا.

طرق الباب طرقة واحدة، دفعه بعدها ودخل دون أن ينتظر أن نأذن له، أكاد أجزم أن عمامته احتكت بسقف الباب عند مروره، قال بصوت رخيم وكأنه يلقي بيانًا في الإذاعة: «المهندس جابر العمَّاري»، مدّ شوقي يده مسلّمًا ودعاه إلى الجلوس على المقاعد المرصوصة في نهاية المضيفة، قال وأراح ظهره إلى المقعد: «هل توصلتم إلى القاتل؟»، قال شوقي: «ما زلنا في مرحلة التحقيقات»، قال ونهض واقفًا «يجب أن تنتهوا من هذا الأمر سريعًا، لا نريد قلاقل في القرية»، «اعثروا على القاتل، وأعدموه قبل أن تدور طاحونة الثأر فلا تجد من يوقفها».

سألته: «إلى أين تذهب؟»، فنظر نحو شوقي ثم أعاد النظر نحوي وقال «هل تحدثني؟»، قلت «وهل هناك في الغرفة مشتبه به غيرك؟ من تظنّ نفسك لتعطي لنا الأوامر ثم ترحل قبل استجوابك؟»، قال وهو يمسك عصاه من الوسط «أنا مشتبه به؟»، «كيف تتحدث إليّ بهذه الطريقة؟»، فتدخل شوقي «هذه إجراءات روتينية لا بد منها لاستكمال التحقيق يا سيّد جابر»، وأكمل: «اجلس لنأخذ أقوالك على عجالة».

سألته أثناء إشعال السيجارة ونفخ دخانها في وجهه «أين كنت منذ مساء أمس وحتى اللحظة؟»، أجاب وهو يضم جلبابه بين ساقيه، ليضع إحداها فوق الأخرى: «كنت في المدينة»، «أوصلني السائق بعد عصر أمس وعاد إلى القرية، يمكنك أن تسأله».

سألته: «هل هناك من يشهد ببقائك في المدينة طوال الليل؟»، قال وهو ينقر بطرف العصا على الأرض «كنت في شقتي بمفردي»، قلت: «هل للعمارة حارس؟ هل تناولت عشاءك في مطعم؟ هل شاهدك أحد الجيران؟»، «ساعدني يا سيّد جابر، لا أريد أن أعرف أسرارك لكني أريد دليلًا واحدًا يثبت أنك كنت بالمدينة وقت قوع الجريمة».

أخرج هاتفه المحمول، قلّب فيه قليلًا ثم قال «لا أتذكر أن أحدًا رآني، فقد كنت بمفردي، لا تضيعوا وقتكم بالشّك في شخصٍ مثلي، الدافع وراء الجريمة واضح، لن يخرج هذا الأمر من عائلة المنشاوي».

أزحت الكرسي إلى الخلف على مهل، ثم نهضت وانحنيت عليه هامسًا: «أنت صاحب مصلحة أيضًا يا سيّد جابر، موت النائب خيري العمَّاري، يُخلي لك الطريق لتكون

مرشح العائلة في الانتخابات القادمة».

قال ودفع الكرسيّ خلفه، ثم نهض ملوحًا بعصاه في الهواء «هذا جنون، جنون بالتأكيد، إذا تباطأتم في القبض على القاتل، فستشعلون في هذه القرية جحيمًا لا يخمد، إني أحذركم»، وخرج كالعاصفة.

انتهى فريق الطبّ الشرعيّ من عمله، فأوقفنا التحقيقات وعدنا لمعاينة مسرح الجريمة من جديد، اكتشفت أن في منتصف السجادة السوداء رسمة لمجموعة أزهار بيضاء، اصطبغت باللون الأحمر نتيجة بقعة الدماء التي كستها.

حاولت دفع جسدي في الفراغ المحدود بين رسمة الطبشور التي تحدد الوضع الذي كانت عليها الجثة وبداية المكتب فلم يتسع لي، درت ووقفت خلف المكتب، تأملت وجهي في سطحه اللامع، فأدركت أني لم أمشط شعري قبل الخروج من البيت، فمسدته بيدي سريعًا، سألت شوقي: «كم المسافة من باب الغرفة إلى المكتب؟»، قال: «نحو خمسة أمتار أو تزيد».

قلت: «كما يبدو من خيطي الدم فإن الجريمة وقعت عند الباب، ثم سحب القَاتلُ الجُثَّةَ إلى هنا»، قال شوقي: «هذا يجعلني أستبعد جلال، فلا أظنّه يستطيع سحب جثة ضخمة كهذه».

ترك فريق الطبّ الشرعي حقيبة السفر مفتوحة لنلقي عليها نظرة متعجلة قبل اصطحابها إلى مختبراتهم، الصفّ العلوي فيه ملابس القتيل الخارجية، ثلاثة جلابيب بألوان مختلفة، وعمامة مكوية، وفي الصفّ التالي رصّت ملابسه الداخلية، وفي قاع الحقيبة لفافة، طلبت من أحدهم في فريق الأدلة الجنائية أنْ يفتحها، فوجدنا فيها أطقم ملابس نسائية داخلية حمراء وسوداء اللون.

لم يخرجني من دهشة اكتشاف خبيئة القتيل سوى حفيف خطواتها على باب الغرفة، رفعت رأسي فرأيتها تنظر من تحت ذراع الجندي إلى رسمة الطبشور، ربما ستكون آخر ذكرى لها عن والدها، هرعت إليها، وأغلقت الباب خلفي، قلت: «ليلى؟»، وفي عينيّ نظرة لوم للمربية، قالت معتذرة: «تريد أن تتحدث إليك يا سيدي، لم أستطع منعها».

صحبتها إلى الحديقة، درنا لفة كاملة صامتين، سارت بجانبي كظلٍّ، لم تلتفت مرة، عيناها تنظر إلى الأمام دائمًا، لا إلى شيء، فقط تجول في الفراغ.

كان البستاني المسنّ يجلس في ظلّ شجرة صفصاف جامدًا، لا يتحرك فيه سوى فكه الأسفل كبندول ساعة، مررنا من أمامه فلم يحفل، طالعت وجه ليلى، فلم يظهر عليها ردة فعلٍ مختلفة.

قلت: «حديقتكم جميلة، أتمنّى أن يكون لديَّ مثلها يومًا، سأجلس لأراقب العصافير وهي تلعب الغميضة، هل تعرفين أنَّ العصافير تحبّ لعب الغميضة؟» أجابت بصوت مهزوز: «العصافير لا تلعب الغميضة».

في اللفة الثانية، توقفت تحت جدار المضيفة البحرية، نظرت طويلًا إلى النوافذ المثلثة بزجاجها المُلوّن المُعشّق، قالت: «العصافير تُحبُّ هذه النوافذ، كانت تدخل منها إلى أبي كي يطعمها، لن يطعمها أحدٌ بعد موته، أليس كذلك؟».

مددت لها يدي كي نسير بعيدًا عن مكان الجريمة لكنَّها قبضت يدها، وتقدمت نحو الجدار، ألصقت ظهرها به، ثم انحنت ووضعت دميتها على الأرض، وقالت: «وإذا متّ، فلن تجد هذه المسكينة من يطعمها، أليس كذلك؟» أجبتها: «لن تموتي يا ليلى، وستطعمين دميتك، وستطعمين العصافير أيضًا»، ونفضت التراب عن الدمية وأعدتها إليها.

درنا لفتين أو ثلاثًا قبل أن تجلس على الأرجوحة، قالت: «ماتت أمي أثناء ولادتي، لم يكن لي غيره، أخي ناصر لا يحبّني، يضربني كلما رآني، يقول إني قتلت أمّنا لكن أبي والجميع يقولون إني لم أقتلها، أخي ناصر يكره أبي، يكره كلّ شيء يرتبط بأبي، حتى أنا أخته يكرهني».

هززت الأرجوحة فندت عنها ابتسامة صغيرة بدت كجرحٍ في وجهها الحزين جدًّا، ثم قالت: «هل تعرف يا عمّ؟ أمي هي من اشترت لي هذه الدمية قبل مولدي، لقد نامت بجوارها كلّ ليلة قبل أن تلدني، أشم فيها رائحتها».

دفعت الأرجوحة بقوة أكبر، تمنّيت أن تتلهى بها قليلًا، لكنّها واصلت كلامها، كمودعٍ يسرّ باعترافه الأخير، «في بعض الأيام أصبح أنا أمّها، أطعمها، أحممها، أدرس لها، وفي بعض الليالي عندما أشتاق إلى أمي تصبح هي أمي، تضمني إلى صدرها، وتحكي لي قصصًا رائعة، إنها تجيد حكاية القصص»، سألتها: «وماذا تحكي لك؟». أجابت: «تحكي لي عن بنات صغار وأمهاتهنّ يا عمّ».

ثم قالت وكأنها فطنت إلى أمر ما «أوقف الأرجوحة»، مدت يدها بالدمية نحوي، «سأعطيك هذه الدمية على أن تعدني وعدًا، عِدني أن تقبض على قاتل أبي».

قلت: «أعدك، سأقبض عليه، ولكن أبقي معك دميتك العزيزة»، قالت: «ستأخذ هذه الدمية لتتذكر وعدك يا عمّ، حتى إذا ماتت ليلى ستذكرك الدمية بوعدك لها».

ارتجفت من كلماتها، تتكلم عن الموت ببساطة وكأنَّها تعرفه، كأنه صنف طعامٍ تذوقت منه مرارًا، أو كأنه حلم معاد يزورها كلّ حين.

قلت، وقبضت على كفها لأنهي هذه الورطة لكنها سحبت كفها من كفي «لن يأخذ أحد منك دميتك المفضلة يا ليلى، ستبقى معك لتعطيها لأطفالك بعد ذلك»، قالت: «إذا لم تأخذ الدمية فلن تهتم بالقبض على قاتل أبي، خذها من أجلي، أرجوك يا سيدي».

خرجت جملتها الأخيرة مع شهقة عالية، أعقبتها دموعٌ صامتة أغرقت وجهها، تلفت حولي، رغبت أن يأتي أحدٌ لينقذني من هذه الطفلة، لكن يدها الممدودة لم تتراجع، فأخذت الدمية بيدٍ مضطربةٍ، عندئذٍ وضعت كفّها في كفي وسارت تدندن بأغنية لم أسمعها.

لا تكتسب عداوة حيّ بصداقة ميت.

(3)

تقلّبت على الفراش طيلة الليل محاولًا تجاهل أصوات الأعيرة النارية التي تطلقها عائلة المنشاوي ابتهاجًا بحسم نتيجة الانتخابات لموت المنافس الوحيد لمرشحهم، لم يراعوا حرمة الموت في قرية صغيرة يمكن للجميع فيها أن يسمع الوساوس التي تُحاك في صدور الجميع.

وضعت الوسادة فوق أذني فاخترقتها كلمات الرسالة التي تركتها الأم بجوار طفلتها المتروكة، للكلمات صدى ضحكة هازئة أطلقها شيطان في وادٍ مهجورٍ ورحل، ولها رائحة نتن جرحٍ متقيحٍ منذ زمن.

سأشغل الوقت بحملة نظافة موسّعة في أرجاء المنزل حتى ينتهي الضجيج، أو سأرتب خزانة الملابس التي لا أعرف عنها شيئًا.

في قعر الجهة اليمنى تقبع دمية ليلى بلونها الفضيّ الحزين كقمرٍ شاحبٍ، وفوقها علبة من الكرتون ربما كانت علبة حلويات يومًا ما، رصصت فيها بعض المستندات المهمة، شهادة الميلاد، عقد إيجار المنزل، عقد الزواج، شهادة الوفاة، ووثيقة الطلاق.

تحت هذه الكومة من الأوراق صورة مطويّة كُتب على ظهرها «حسّان ومنى حتى تتوقف الأرض عن الدوران».

كنّا يومها نجلس على كورنيش النيل نأكل الذرة المشوية كعشرات العشاق من حولنا، ثم مرّ المصور الفوتوغرافي فالتقط صورة لمنى وهي تدور حول نفسها، فيلف فستانها في حلقات حلزونية كدوّامة، فكتبتُ بجذع الذرة المحترق هذه الجملة التي عَدَّتها اختراعًا يجب تسجيل ملكية حقوقه الفكرية.

ورغم أن الأرض لم تتوقف عن الدوران بعد، فإن حسّان ومنى توقف حبهما، في اللحظة التي سقط فيها ابننا –عمر- برصاص سلاحي الميري.

كنّا نحتفل بعيد ميلاده الثالث، في صالة هذا المنزل التي زيَّنتها زوجة شوقي كقاعة عُرسٍ، عندما وضع إصبعه الصغير في فوهة المسدس المُدلَّى من خصري، نظرت مُنى نحوي تلك النظرة المُحذرة، «لقد أقسمت» قالت، كانت تذكرني بتعهدي لها قبل الزواج أن أبقيها وأولادنا خارج دائرة الخطر التي تنجم عن طبيعة عملي في الشرطة.

كان هذا العائق الوحيد أمام إتمام زواجنا. ماطلت ثلاث سنوات أو أكثر في الموافقة على الارتباط خشية أن تَفقدني أو يُفقدنا العمل في الشرطة أحد أولادنا، فأقسمت لها في ليلة صافية بأن أمنحها وأولادنا أمانًا لا خوف بعده.

في ليلة الاحتفال بعيد ميلاده طاب لي أن أعاكسها، فأخرجت المسدس من جرابه، ووضعته بين يدي عمر، هازئًا من ملامح الفزع التي نحتت وجهها، قالت «أرجوك يا حسّان، أتوسل إليك، قلبي ينبض بعنف، خذ منه السلاح»، ضحكتُ بصخب، ووضعت المسدس في سبابتي، لففته كالمروحة، فانطلقت منه تلك الرصاصة الخائنة إلى صدر عمر، وسقط في لحظة.

لم يقتل عمر في ذلك اليوم وحده، قتلت منى التي أصيبت بانهيار عصبيّ ألزمها المستشفى نحو سنة أو أكثر، وقتل زواجنا، وقتلت أشياءُ في داخلي لكنّها لم تدفن بعد.

بعد خروجها من المصحّ النفسيّ، أصرّت على الطلاق، كانت حجتها واضحة، «لقد خنت عهدك والقسم»، قالت: «قتلت ابنك، وستقتلني أو ستقتل نفسك غدًا، الرجل الذي لا يحفظ وعده لعائلته، لا يستحق أن تكون له عائلة».

وعندما رحلت رحل معها كلّ شيء، لم تترك في البيت ذكرى واحدة لها أو لعمر، أخذت جميع الصور، الملابس، الكتب التي اعتدنا قراءتها معًا، ألعاب الأطفال، زجاجات عطرها الفارغة. جَرَّدت المنزل كريحٍ غاضبة، فصار أشبه بإنسانٍ فقد ذاكرته فجأة.

طوال الأشهر التالية للطلاق، أقمت بشكل شبه دائم في بيت شوقي، وجدتُ في صخب أطفاله اليوميّ علاجًا لصمت الوحدة وشبح الموت الذي يسكن بيتي، كانت زوجته أختًا حقيقية، وكان بيته يضج بالحياة، آوتني أسرة شوقي في وقت صعب احتجت فيه إلى من يشعرني أنني لست خطرًا على نفسي أو من أحبّهم.

جاء أذان الفجر حزينًا وكأنَّه ينعى الصباح لا يبشّر به، لا أعرف كيف سيصطف أهالي القرية المنقسمون بين عائلتي العمّاري والمنشاوي في صفٍ واحد للصلاة؟ كيف تتوحد قلوبهم على قِبلة واحدة وبينهم كلّ هذه الفرقة؟

الساعة التاسعة صباحًا.

غفوت بل نمت خمس ساعات متواصلة، صوت شوقي يعود عبر الهاتف ليوقظني بلزوجته المعتادة: «تقرير الطب الشرعي الأولي بين يدي، طُعن بسكين لا يقل نصله عن عشرين سنتيمترًا، وجاري تفريغ رسائل الهاتف».

سألته «هل تعلم معنى ذلك؟»، قال شوقي: «القاتل شخصية مألوفة للقتيل، اقترب منه دون أن يثير مخاوفه، أراهنك أنه ناصر».

قلت: «متسرع»، فسمعت ضحكته التي تصدر من أنفه غالبًا، سألني: «سأراهنك على وجبة كباب، هل تقبل؟» قلت: «سأقبل بكوب من الشاي بعد نصف ساعة، انتظرني».

عرَّجت في طريقي إلى القسم بسراي العمَّاري، توقفت في ظلّ شجيرات التين المورقة أمام البوابة، ظننت أني أبحث عن شيء ما، أُكمل التحريات، أستنطق الشجر والحجر ليدلّ على القاتل لكن ذلك لم يكن صحيحًا. فما إن أطلت من نافذتها المُسيّجة ومن خلفها مربيتها حتى أدرت السيارة وذهبت.

حمل تقرير الطبّ الشرعي العديد من المعلومات الأخرى منها؛ خلو مسرح الجريمة من أيّ بصمات سوى بصمات جلال، حتى القتيل لا توجد له بصمة أو جزء من بصمة، كما أفاد التقرير أن الجريمة وقعت ما بين الرابعة فجرًا والسادسة صباحًا، وأكّد أن القاتل استعمل يده اليمنى في طعن القتيل طعنة واحدة أصابت قلبه مباشرة فنتجت عنها الوفاة.

سألت شوقي في طريقي إلى الخارج «سيكون يومنا حافلًا بالاستجوابات، بمن نبدأ بالمنشاوي أم بزوجة ناصر؟»، قال: «المنشاوي أقرب».

تحولت القرية بين عشية وضحاها إلى ثكنة عسكرية، عربات الأمن المركزي تصطف على جانبي الطريق، تطلّ من نوافذها أطراف العصيّ والهراوات كأصابع السبابة مهددة من تسول له نفسه الخروج عن النظام، صخب الجنود وألفاظهم النابية حوّل القرية الهادئة إلى بؤرة ضجيج.

ومع ذلك فالتجمعات تتزايد ساعة بعد أخرى، تبدأ بمجموعات صغيرة تضم خمسة رجال أو أقل وتنتهي أمام أحد بيوت كبار العائلتين بالمئات، الجميع يمسك في يده شيئًا ما يصلح للاشتباك.

قبيل الجسر الترابي الذي يقود مباشرة إلى كتلة بيوت عائلة المنشاوي، عُلّقت اللمبات الملونة، التي تلاشى ضوؤها تحت نور الشمس، وصورة كبيرة بالحجم الطبيعي لحجاج المنشاوي، كتب تحتها «نائب كلّ الناس».

في الباحة الأمامية لسرايته، نصب له كرسيّ ضخم، وخلفه صورة عملاقة أخرى، طلبنا مقابلته، فخرج إلينا في عباءة صفراء أكبر من حجمه مرتين، فتح ذراعيه مرحبًا وفي يده اليمنى عصا من الأبنوس، تجاهلت التحية المبالغ فيها، وقلت «جئنا للتحقيق في مقتل النائب خيري العمَّاري، نريد مكانًا هادئًا للحديث».

رأيت نظرة دهشة في عيني شوقي لهذه البداية الجافة، قال المنشاوي «لا نائب للدائرة سوى حجاج المنشاوي، خانك التعبير يا حضرة الضابط».

أزحته بيدي اليمني لأفسح طريقًا بين أنصاره، وقلت «لم تصبح نائبًا بعد، أنت في قائمة المشتبه بهم، لا تجبرني على جرّك إلى القسم».

ضاقت حولنا دائرة مؤيديه، فضحت نظرات الكراهية ما اعتمل في صدورهم وحالت صفتنا الرسمية دون ظهوره. أكملت «أين سنحقق معك يا حجاج؟ هنا في بيتك أم في قسم الشرطة؟».

كنت أعرف مثله تمامًا أنّه حسم الانتخابات بالتزكية لموت منافسه، وأنّه بعد أيام قليلة سوف يحتمي في الحصانة البرلمانية التي ربما تحول دون استجوابه، كما أن نفوذه سوف يتسع بالقدر الكافي للانتقام من هذا الموقف، ورغم أنني لم أحسب يومًا على إحدى العائلتين فقد وضعتني هذه المواجهة في عداءٍ أبدي مع عائلة المنشاوي.

قال شوقي بلطف «لن نستغرق من وقتك طويلًا»، فمدّ حجاج المنشاوي عصاه إلى الأمام لينزاح رجاله على الجانبين صانعين طريقًا إلى غرفة جانبية.

قلت: «لدينا معلومات مؤكدة أن القتيل تلقى رسائل تهديد بالقتل إن لم ينسحب أمامك من الانتخابات»، قال حجاج بعد أن رفع قدميه على طاولة صغيرة أمامه: «وإن يكن، أنت تعرف طبيعة الانتخابات في القرى يا حضرة الضابط»، «بم يدينني هذا؟».

قلت: «ستعدّ أحد المستفيدين الرئيسين من موته، مما يعظم الشبهة حولك»، قال: «لا ترهق نفسك في معرفة القاتل لأنك لن تعرفه، ولا تكتسب عداوة حيٍّ بصداقة ميتٍ».

قلت: «ما معنى هذا؟ هل أعتبره تهديدًا؟» ارتفع صوتي فأطلت رؤوس بعض الرجال من النافذة، فأشار إليهم لينصرفوا، ثم قال «اسمع، يُقدر عدد أنصاري بنحو 70.000 شخص، فإن كان أحدهم قد حمل السكين ليقتل من أجلي، فلن أتخلّى عنه، أقولها لك صريحة».

همّ شوقي بالتعليق عندما سمع كلمة السكين لكنّي أمسكت يده، قلت: «هذا يكفينا اليوم يا حجاج» وغادرنا.

ولكن لماذا لم تأخذ البطاقة؟

(4)

قبض شوقي على مقود السيارة بعصبية حتى إني رأيت العروق نافرة في ساعديه، سألت شوقي: «هل ما زلت مصرًّا على المراهنة بوجبة كباب؟» فلم يردّ، ظلّ متجهمًا وقتًا ثم أوقف السيارة وقال «لماذا كنت بهذه العدوانية؟ كان يمكننا الحصول على المزيد من المعلومات إن لم تعامله بهذه الفظاظة، لقد كنت كأحد أنصار العمَّاري وليس كرجل شرطة. حققنا معًا في عشرات القضايا من قبل هنا وفي أماكن أخرى والتزمتَ في كلّ مرة بسلوك مهنيّ، فماذا حدث لك؟»

أدرت رأسي ناحية النافذة وقلت «أنت متعاطف مع المنشاوية؛ لأنك تزوجت منهم» لمحته بطرف عيني يرمقني مغتاظًا ثم سمعت صرير دوّاسة البنزين قبل أن يقول «لو وصل إليها ما فعلتَه بنائب عائلتها، ستحرمك من صينية البطاطس باللحم الأسبوعية».

كلامه صحيح تمامًا، ما الذي استفزني؟، لماذا خرجتُ عن الحياد المفترض في مثل هذه المواقف؟ الدرس الأول الذي يتعلمه الشرطي في حياته العملية أن يرتدي قناعًا من حديد، لا تظهر عليه انعكاسات عواطفه تجاه المجرم أو الضحية.

هذا الوجه الحديدي يمنح العمل الشرطي قيمته كلّها، يراه الضحية فيوقن بالعدالة، ويراه المجرم فييأس من المحاباة.

قال شوقي «ربما نذهب إلى المصيف بعد انتهاء هذه القضية. هل ترغب في المجيء معنا»، ضحكت وضربت بكفي على زجاج باب العربة، «هذه هي المرة الألف التي تعد فيها زوجتك بالذهاب إلى المصيف ثم تخلف وعدك، لقد أصبح المصيف مثل أكياس غزل البنات الذي تطلبه المسكينة منذ زواجكما وتتعمد عدم شرائه»، قال ضاحكًا: «المصيف والزوجة لا يجتمعان».

اقتربنا من فيلا ناصر التي صممت على نمطٍ عصري، بأسوار منخفضة، وكاميرات مراقبة في كُلِّ الزوايا، المسافة بين البوابة الخارجية والباب الرئيس وضعت فيها ثلاث سيارات، إحداها قديمة من طراز فلوكس فاجن.

قادنا الخادم إلى الباحة الخلفية التي يحتلّها مسبح هلالي الشكل، وقفت عند إحدى زاويتيه خادمة بدينة. قَلَّبتُ كفيّ متسائلًا عن زوجة ناصر فأشارت إلى عمق الماء.

تقدم شوقي خطوتين إلى حافة المسبح، ثم لاحظت اتساع عينيه وارتخاء فكه إلى الأسفل، هرولت إلى جانبه، فشاهدنا فقاقيع الهواء تطفو على سطح الماء، بعدها برز

رأسها الصغير، رمقتنا بوجه باسم مشيرة إلى مظلة من الخيزران تحتها عدد من المقاعد.

انسحبنا إلى حيث أشارت، تأملنا في سكون صعودها على سلم المسبح في الناحية المقابلة، وعندما قدمت نحونا كانت قد ارتدت روبًا مفتوحًا وفي يديها منشفة بحجمها تقريبًا.

قلت: «يمكننا أن ننتظر حتى ترتدي ملابسك»، فوضعت المنشفة فوقها رأسها وقالت: «هل ترغب حقًّا في فعل ذلك؟»، قال شوقي: «يمكنك أن تبقي، لا نريد أن نهدر وقتك» لكنّها ذهبت قبل أن يكمل جملته.

سألني شوقي «كيف حال الطفلة حسناء؟»، قلت: «وُضعت في حضّانة خاصة داخل المستشفى، لا يعتقد الأطباء أنّها ستنجو».

أكملت: «لدينا الكثير من الخيوط التي يمكن أن نبدأ منها، المستشفيات وأطباء التوليد –مثلًا– فلا شك أن ولادة طفل مثل هذه ستكون حالة مشهورة يتحدثون عنها»، قال: «وكذلك أماكن صناعة سلال الخوص الملونة، خَطّ الأم، والبحث عن المتزوجات حديثًا فقد ذكرت أنّها أولى أطفالها»، قلت: «ولا تنس أنّ زوجها مسافر، هذا ربما يساعدنا كذلك».

قالت الخادمة: «السيدة هداية تنتظركما بالداخل»، أوقفنا الحديث وسحبت شوقي إلى داخل الفيلا، ضربتنا لفحة هواء باردة، ونحن نشاهد انعكاس خيالاتنا في الزجاج اللامع فانتبهت إلى أنّي ما زلت أسحبه من يده.

كانت تجلس تحت أحد الأعمدة الرخامية بعيدًا عن المقاعد المعدّة للجلوس، ترتدي قميصًا رجاليًّا أبيض، شَمَّرت أكمامه، وجيبة سوداء قصيرة تكشف عن ساقيها المتقاطعتين، وقدميها الحافيتين.

قال شوقي: «سيدة هداية هل من أخبار عن زوجك؟»، أجابته: «ليس بعد»، سألها: «هل تعرفين أين يمكن أن يكون الآن؟» قالت وعلى شفتيها الملفوفتين ابتسامة «وهل عرفت أين كان قط؟».

ضغط شوقي حروف الكلمات، وهو يتقدم بجسمه إلى حافة المقعد: «ماذا يعني هذا؟» قالت «ناصر لا يخبر سرّه لأحد، يخرج وقتما يريد، ويعود وقتما يريد. يختفي بالأسابيع ثم يظهر، هذا ليس بالأمر الجديد»، تداخلت معهما: «متى آخر مرة شاهدته فيها؟»، فاستدارت نحوي بعد أن أزاحت شعرها القصير خلف أذنيها، وقالت «إن كنت تقصد ليلة الجريمة، فقد عاد قبل منتصف الليل، أخذ زجاجتي خمرٍ وخرج، ومن وقتها لم أسمع منه أو عنه».

كانت حركة رفع شعرها خلف أذنيها ساحرة بطريقة ما، كما كشفت عن وجهها الصغير كوجه حمامة، قالت: «أنت لا ترمش»، صحت وكذلك فعل شوقي «ماذا؟»، قالت «عيناك لا ترمشان» ووضعت كفيها على فمها تخفي ضحكة.

استرخى شوقي في مقعده وعلى وجهه ابتسامة غبية مستسلمًا لدفق الهواء البارد الذي يأتي من كل مكان، سألتها متجنبًا النظر إلى عينيها: «ماذا تعرفين عن علاقة ناصر بالقتيل؟».

قالت: «العلاقة متوترة كما يعرف الجميع»، أكملت وهي تنهض من تحت العمود الرخامي لتستند بظهرها عليه، دون أن تتخلى عن تقاطع ساقيها «ناصر لم يقبل يومًا أن يحلّ الحاج خيري محلّ والده الراحل، ظنّ دائمًا أن وجوده في حياة أمّه يكفي، حتى عندما كان صبيًّا صغيرًا، كانت العائلة تعرف أن زواج الحاج خيري من زوجة أخيه المتوفى محتوم، لكن ناصر لم يفهم ذلك، ولم يفهمه حتى الآن».

قال شوقي: «هل هذا سبب العداء الدائم بينهما؟»، قالت: «يمكنك أن تقول إنّه أساس العداوة، عندما تزوج الحاج خيري من أم ناصر اضطر إلى أن يصطدم معه كثيرًا، لعلّكما سمعتما بقصة الصفعة؟».

هززنا رأسينا معًا، فأكملت «بعد أن سقط والد جلال صريعًا في محاولة إنقاذ الحاج من ضربة سكين غادرة في إحدى الجولات الانتخابية، كان من الطبيعي أن يكفل الحاج أسرة القتيل كتعويض عن فقد والدهم»، سألها شوقي «هل قُتل والد جلال بسبب الحاج خيري؟»، فأومأت برأسها الصغير مؤكدة، قالت «كان جلال وناصر في نفس العمر تقريبًا، لذلك حدثت مناوشات كثيرة بينهما، واشتعلت هذه المناوشات بسبب المعاملة المميزة التي حصل عليها جلال في سرايا الحاج، كان جلال ذكيًّا، استطاع أن يحقق للحاج خيري ما عجز عنه ناصر، أصبح بمكانة الولد الذي لم ينجح في إنجابه، انطوى الصبي تحت جناح الحاج المشغول دومًا، فصار في وقت قصير اليد اليمنى وكاتم الأسرار، في نفس الوقت ابتعد ناصر تدريجيًّا إلى أقصى طرف من الحاج وأعماله».

سألتها: «هذا طبيعي، لكن ما قصة الصفعة؟»، فأخرجت من مكانٍ ما في جيبتها منديلًا ورقيًّا جففت به كفيّها وقالت: «كنّا كأطفال العائلة نجتمع بشكل دوري في سرايا العمَّاري، وكان جلال ينضمّ إلينا إذا كان الحاج مسافرًا أو خارج القرية، ألفنا وجوده كأنّه واحدٌ منّا، لكن ناصر كان يرى فيه دخيلًا سلبه شيئًا لا يعرفه». سألتها: «هل تقصدين المكانة المميزة لدى الحاج خيري؟».

قالت «من المحتمل، رغم أنّ ناصر لم يسع يومًا لنيل هذه المكانة، ربّما لو فعل لقدّمه الحاج على جلال، فعائلة العمَّاري لا يقدمون الغريب على القريب مطلقًا، كان صبيان

العائلة يدخلون في منافسات قوى استعراضًا لقدراتهم، ومن ينجح يختار من بيننا نحن الفتيات عروسًا، لتصبح فتاته إلى أن يجروا مسابقة أخرى» وشردت قليلًا.

«في هذا اليوم كان التنافس حول القفز من أعلى شجرة الصفصاف العتيقة في حديقة السرايا، أطلقوا عليه اختبار الثقة لأن أغلب الصبيان رفضوا تسلق الشجرة المرتفعة، لكن جلال رغم مرضه فعلها، تسلّق الصفصافة وقفز. لم يقبل ناصر بهذا، فتسلّق الشجرة كي لا يقال إن جلال الفائز وحده، لكنّه عجز عن القفز، بقي معلقًا بين الفروع شاحب الوجه يغالب دموعه، فاستغلّ الجميع هذا الموقف للانتقام منه، كان له معنا كلنا عداوات، فرشقناه بالأحجار من الأسفل، وأصبح أضحوكة بيننا حتى أطلّت أمّه من النافذة وأمرت الخدم أن ينزلوه، كان أول ما فعله ناصر حين وطئت قدماه الأرض، أن اندفع إلى جلال وصفعه أمام الجميع، رغم أن جلال كان الوحيد الذي لم يرمه بالأحجار».

قال شوقي «هذا التصرف أغضب الحاج خيري بالتأكيد»، قالت: «صحيح، غضب جدًّا عندما وصله الخبر، فاستدعى في الأسبوع التالي جميع الأطفال الذين حضروا الواقعة، وطلب من جلال أن يردّ الصفعة لناصر»، سألتها: «وهل فعلها؟»، أجابت: «تردد جلال طويلًا، لكن الحاج خيري كان حازمًا ولم يدع مجالًا للهرب لكليهما». قال شوقي: «إذن صفعه جلال»، فأومأت مطرقة.

أكملت ورأسها يهتزّ ببطء يمينًا وشمالًا «كانت هذه الصفعة نقطة اللاعودة في علاقة الحاج وناصر، لقد حكمت هذه الصفعة مصير الكثيرين من الأبرياء في هذه العائلة».

قلت: «هل يمكن أن أطرح سؤالًا ربما يبدو غريبًا؟»، عادت إليها ابتسامتها وثبّتت خصلة شعر خلف أذنها اليمنى وقالت «بكل تأكيد»، سألتها: «في هذا اليوم، وبعد أن فاز جلال بالمنافسة، من اختار من بينكنّ لتكون عروسه؟».

قالت: «كيف ستساعدك إجابة هذا السؤال؟»، قلت: «فقط لتكتمل القصة»، ردّت وهي تفرك المنديل بين كفّيها «لا أتذكر».

سألتها: «لا بأس، هل يمكننا أن نطلع على غرفة ناصر بشكل وديّ -بالطبع- ربما نجد ما يقودنا إليه؟»، قالت: «هل تقصد غرفة نومنا؟»، هززت رأسي مؤكدًا، فحركت كتفها اليسرى إلى الأمام وقالت «ولم لا؟».

صعدت السلّم أمامنا حافية، أشار شوقي من خلف ظهرها بيديه محاكيًا حركة جناحي طائر، فأسبلت عيني وهززت رأسي موافقًا، فقد كان هذا أدقّ ما توصف به، عصفور كناريا منمنم، لكن له جاذبية كلّ الطيور.

عندما وصلنا إلى الغرفة في الدور الأول العلوي كنت وشوقي منهكين، ظهر ذلك في حركتنا المتكاسلة، كما زاد الصقيع الذي يأتي من كلّ مكان بسبب المكيّف المركزي من شعورنا بالنعاس. فتحت باب الغرفة، وسمحت لنا بالدخول قبلها، لفحنا عطرها، «الله» قالها شوقي ممدودة بعفوية، أغلقت الباب وانضمت إلينا، جلست على حافة الفراش، قالت: «الغرفة لكما، ابحثا كما تشاءان».

كلُّ شيء في موضعه بحرصٍ زائد، حتى أدوات الزينة وزجاجات العطر صُفت في خطوط مستقيمة، لم يشرد شيء عن هذا التنسيق، أما خزانة ملابس ناصر فشبه خاوية، وليس له متعلقات خارجها، ليس على المشجب سوى قطعتين من الملابس الداخلية النسائية بلون ذهبيّ، همّ شوقي بالاقتراب منهما فجذبته من يده، فأدارت وجهها ناحية الحائط لتخفي ضحكتها.

قالت وهي تهزّ ساقيها: «لم يبق سوى خزانة ملابسي، هل ترغبان في تفحصها؟»، أسرعت بالرفض قبل أن يورطنا شوقي، وشكرتها.

على مدخل الفيلا، وقبل خروجنا سألتني «أنت الضابط حسّان، أليس كذلك؟، خمّنت شكلك من وصف ليلى لك».

أومأت لها أني هو، فقالت «هل يمكنني أن أحصل على رقم هاتفك، لأبلغك متى سمعت عن ناصر؟»، عضّ شوقي على شفتيه وهزّ رأسه متحسرًا حين قدمت لها البطاقة التي تحمل أرقامي، لكنّها قالت سأكتبه أفضل. أحضرت الخادمة القلم والأوراق، فكتبته باللغة الإنجليزية وبيدها اليسرى.

قال شوقي وهو يدير المفتاح في السيارة «أثبتت براءتها، دون أن تقصد»، قلت «ولكن لماذا لم تأخذ البطاقة وأصرت على الكتابة أمامنا؟».

حفرت جيدًا هذه المرة. أخرجت جذرًا،

أليس كذلك؟

(5)

لم أتوقع أن تتصل هداية بهذه السرعة، في منتصف الليل تقريبًا، رنّ الهاتف رنّة واحدة، فأعدت الاتصال، جاءني صوتها ناعسًا «هل أيقظتك؟»، من الصعب أن تنسى خلايا عقل الرجل مثل هذا الصوت، سألتها بنبرة حرصت أن تكون رسميّة قدر المستطاع «سيدة هداية، هل حدث شيء؟».

قالت: «فقط أردت أن أبلغك رسالة، أريد أن أشكر صديقك المحقق الذي كان معك اليوم»، أغمضت عينيّ وعشرات الاحتمالات السيئة عن نزق شوقي تدور في ذهني، قلت متوجسًا «علام تشكريه؟»، قالت: «على وصفه لي بالطائر، لقد شاهدته في تسجيل الكاميرا، في الحقيقة أنا أشاهدكما الآن».

ضربت جبهتي بيدي، «سأبلغه» قلت متلعثمًا «تصبحين على خير» أنهيت الاتصال مطلقًا سيلًا من السباب لاعنًا شوقي وعائلته.

طالت الليلة وكأن صوت هداية كوب ثقيل من القهوة، لم ينبّه عقلي وحسب ولكن أيقظ جوارح أخرى حرصت أن أقمعها على مدى السنين الخمس الماضية.

نشرت أوراق القضية على الفراش، كانت كلعبة دومينو «مقفولة»، الجميع مشتبه به بطريقة ما، زلة لسان حجاج المنشاوي عن استخدام السكين في الجريمة توحي أنّه يعرف شيئًا، اختفاء ناصر بعد الحادثة وعلاقته المتوترة مع زوج أمّه والجملة التي قالها أمام جلال ترشحه كقاتل مثاليّ، جابر ابن عمّ القتيل لا يملك حجة غياب، حتى هداية هذه الأنثى النموذج أنهت التحقيق معها بحركة مريبة.

من القاتل؟

دمية ليلى تطلّ برأسها من فرجة خزانة الملابس، تنتظر الإجابة، تذكرني بالوعد الذي قطعته بالقبض على قاتل والد صاحبتها، تذكرني بالوعود التي يثقل بها المرء كاهله، فتصبح ديونًا عليه الوفاء بها كلّ عمره، بل الوفاء بما يترتب عليها من فوائد مركبة. لماذا تؤخذ الوعود بكلّ هذه الجدية مع أن الواعد والموعود كلاهما يعجز عن تأمين دوام حياته لحظة بعد الوعد؟

لماذا نتعلق بالوعود ونرهن عليها مصائرنا رغم أننا لا نملك في الحقيقة مصائرنا، نحن كأوراق الشجر قد تسقطنا هبّة ريح، أو مزحة صبيّ، أو قرار بستانيّ، وأحيانًا نسقط بسبب لا شيء، ألا يقف أحدهم ليستظلّ بشجرةٍ في ذات الوقت الذي يقطف فيه أوراقها من أجل لا شيء؟

كيف لم تدرك منى أنّني حين وعدتها بالأمان كنت صادقًا؟ وأن الرصاصة التي انطلقت كانت مصادفة، كذلك العابر الذي استظلّ بالشجرة فقطف أوراقها؟ لم أتعمّد قتل عمر؟ لم أتعمّد أن أحنث بوعدي أو أتسبب لها في هذا الألم؟ لماذا وضعت وعدًا واحدًا في مقابل الحياة كلّها؟

درت في جوانب البيت الصامت، بيت الأشباح الذي تطلّ من كل ركنٍ فيه ذكريات مشوشة، بحثت للمرة الألف –ربما- في الأدراج وتحت المقاعد وفي زوايا الخزائن عن شاهد واحد عن سنوات زواجي الثلاث دون فائدة، من أين جاءت منى الرقيقة بهذه الفكرة الانتقامية للعقاب؟ كيف لها أن تسلبني ذكرياتي بهذه القسوة؟

ارتديت ملابسي على عجل، وفررت إلى الشوارع التي لم تعرف النوم مثلي، جندي من قوات مكافحة الشغب يطرق على حديد سلاحه يغنّي أغنية شجية بصوت مشروخ من السهر واللوعة، ومزارعون تحت شجرة نبقٍ في وسط حقلهم يندبون سني أعمارهم المارقة بلا جدوى، وعجوز ترقد على فراش خارج دارها تنادي من رحلوا وتركوها.

هواءٌ ثقيلٌ وكأن ذراته مرشوشة بالزيت، وتراب سمج ما إن وطئته حتى حام حول وجهي كذباب غبيّ، فتحت أزرار القميص حتى المنتصف، لن أبالي إذا شوهدت هكذا، أرغب أن أنزع كلَّ ملابسي، أن أسير عاريًا تحت السماء، أرغب أن أُلمس، أن أشعر بأنني لست شبحًا.

رنّ الهاتف.

ظهر رقمها على الشاشة من جديد، وضعته في جيبي، أغمضت عينيّ وكأن الرنين يتسرب منهما، عاد يرنّ مرة أخرى، قالت هداية «أراك في كاميرا المراقبة، هل ترغب في الدخول؟»، التفت حولي، كيف قادتني قدماي إلى بيتها؟ أغلقت أزرار القميص، قلت: «أقوم بجولة تفقدية للقرية»، تساءلت: «بقميصٍ مفتوحٍ؟»، أجبتها: «الجوّ بعيدًا عن المكيّفات المركزية شديد الحرارة»، قالت: «يمكنك أن تدخل لتأخذ جرعة هواء لطيف»، رددت «أشكرك» وأغلقت الهاتف قبل أن أسمع حرفًا آخر من كلامها.

في الصباح تحول وجهي إلى رسم كارتوني لشخصية حمقاء، تهدل جفناي كجوالين فارغين، واحمرت عيناي، ونبتت شعيرات خشنة في ذقني عجزت أن أحلقها، حتى عظمتا وجنتيّ برزتا كجزيرتين انحسرت عنهما المياه بغتة.

ارتديت النظارة السوداء الكبيرة وانطلقت إلى سراي العمَّاري، هاتفني شوقي في منتصف المسافة ليخبرني أن إشارة من الطب الشرعي أفادت بوجود منشط جنسيّ في دمّ الضحية، وبهذا فإن الملابس النسائية ليست مدسوسة على شنطة سفر القتيل، وهناك امرأة خفية في حياته.

جلست على كرسيّ من البلاستيك تحت شجرة الصفصاف العملاقة، الأفرع تتمدد على جميع نوافذ السراي المطلة على الحديقة، تغطيها كأذرع طويلة طول السنين والأيام، قلت للبستاني صاحب الفكّ الهزاز «لا بد أن هذه الشجرة قد شهدت أحداثًا جسامًا مثلك»، فطرد الذباب الحائم حول وجهه وقال «الحمد لله أنّ هذه الكائنات لا تتحدث، وإلّا لفضحتنا»، ثم مهّد الأرض تحته، وتمدد نائمًا.

قال جلال «هل طلبت رؤيتي يا سيدي الضابط؟»، أشرت إليه ليجلس، وسألته: «أخبرني يا جلال، هل كان للحاج خيري علاقات نسائية؟ هل يعرف نساءً في القرية أو خارجها؟»، فهبَّ مرتعشًا، حتى إنّي مسحت بعينيّ الأرض تحته خشية أن يكون قد لُدغ.

قال: «ماذا تقول يا سيدي؟ لقد عُرف الحاج باستقامته منذ أن كان شابًّا، فهل يقع في النقائص في هذا العمر؟ وفي هذه المكانة؟ إن ألدّ خصومه وعلى ما كان بينهم من تراشق واتهامات لم يجرؤوا على قول ذلك؛ لأنهم يعرفون أنه لن يصدقهم أحد».

سألته: «لكنّك لم تصحب الحاج في كلّ سفرياته خارج القرية، ألا يمكن أن يكون قد تعرف على إحداهنّ في المدينة أو في العاصمة؟»، أجاب: «لقد ائتمنني الحاج على أدق تفاصيل حياته، وعلى أمواله، وأسرار خصومه، فلو حدث مثلما تقول لأخبرني».

سألته: «لا بأس، فلنترك هذا الأمر، بصفتك كنت ملاصقًا للحاج، هل حدثت أيّ مشادات مؤخرًا بينه وبين أحدٍ من العائلة؟».

قال جلال: «هذا صحيح. ولكنّها مشادة معادة ومكررة»، سألته: «ماذا تقصد؟»، قال «الحاج دائم الشجار مع المهندس جابر ابن عمّه. لا يكادان يلتقيان حتى يعلو صوتهما، ويحدث الشّجار» «لقد أصبح الموضوع مألوفًا حتى إننا لم نعدْ نهتم بالتدخل».

سألته: «وما سبب هذا المشاجرات المستمرة؟»، قال: «لم يسمح الحاج لأحدٍ بمعرفة السبب، كان يغلق الباب، ويمنع أيّ شخص من الاقتراب، كان أحيانًا يخرج فجأة ليتأكد من خلو المكان من العاملين، كما كانا يقطعان الحديث فجأة إذا دخل عليهما أحد».

قلت: «حسنٌ، يمكنك الانصراف يا جلال».

قبل أن يدخل من باب السراي، ناديت عليه، وسألته: «جلال، هل تتذكر يوم الصفعة؟ تحت شجرة الصفصاف هذه؟»، قال: «من أخبرك يا سيدي بهذه القصة؟ وما علاقتها بمقتل الحاج؟».

تقلّب البستاني في رقدته، وبدا أنّه يهذي بكلام غير مفهوم، سألته: «من اخترت لتكون فتاتك يومئذ يا جلال؟» قال: «هذه قصة مضى عليها زمن يا سيدي، فهل سأتذكر مثل هذه التفاصيل؟».

سألته: «هل كانت هداية؟»، فمسح بطرف كمّه العرق المتحدر على عينيه، قال: «صدقني لا أتذكر يا سيدي، لا أكذب عليك، وليست لدي مصلحة في إخفاء مسألة مثل هذه مرّت عليها سنوات طويلة»، قلت: «أصدقك يا جلال»، وتركته ينصرف.

انتظرت أن أنهي سيجارتي لأرحل بعدها لكن البستاني اعتدل من نومته، أسند ظهره إلى جذع الشجرة وقال «حفرت جيدًا هذه المرة، أخرجت جذرًا، أليس كذلك؟»، نفضت رماد السيجارة في الناحية الأخرى، وقلت «لا أفهمك»، صمت وقتًا، ووضع أصابعه على وجهه، وكأنه يعيد ضبط فكه الهزاز ثم قال «هذه ليست مهارة كما تظنّ، براعة البستاني الحقيقية في إعادة زرع الجذر المدفون لينبت من جديد، وإلّا ما فائدة جذر ميّت؟».

قلت: «أنت رجل غريب»، قال مبتسمًا: «أنا رجل طاعن في السنّ»، ثم تمدد ونام من جديد.

كان جسداهما ملقيين على الأرض..

(6)

استدعيت كبار عائلتي العمَّاري والمنشاوي للترتيب ليوم الجنازة، فالحشود التي تتنامى يوميًّا بقدوم المزيد من الأنصار من القرى المجاورة، وتتراكم في الساحات والحقول قد تكون وقودًا مخزونًا ليوم مثل هذا.

غاب حجاج المنشاوي وجابر العمَّاري عن الاجتماع، أرسل كلٌّ منهما مندوبًا عنه. هذا لا ينذر بخير، غيابهما يؤكد ظنوني أنّ هناك ما يعدّ للغد، وكلاهما يرغب أن يكون خارج الصورة.

أخذت تعهدات ممن حضروا بمرور اليوم دون أزمات، وطلبت من شوقي أن يتابع معهم التطورات لحظة بلحظة. انسللت من الاجتماع إلى سراي جابر العمَّاري، كان الرجل مهيب الطلعة متعريًا، يقف بالسروال الداخلي مرتديًا نظارته السوداء ذات الإطار السميك، بين يديه قبضة من التبن يطعمها حصانه الأدهم.

فاجأته من الخلف «أسعد الله أيّامك يا سيّد جابر»، انفلت التبن من يده، ثم قلت: «ظننت أنّ أمرًا جللًا عطّلك عن حضور اجتماعنا اليوم للترتيب للجنازة». تلفت حوله باحثًا عمّا يرتديه لكنّه لم يجد قال: «توعكت قليلًا، فأرسلت من ينوب عني».

قلت: «لا بأس، لا بأس يا سيد جابر، سيمرّ الغد بخير حال بإذن الله»، فهزّ رأسه ليخفي زوغان نظراته، سألته: «ألم تجد من يشهد أنك كنت في المدينة ليلة الجريمة؟».

قال: «هل سنعود لهذه التخاريف من جديد؟، أنا فوق الشبهات يا حضرة الضابط، يجب أن تعرف هذا».

سألته: «ليس هناك أحد فوق الشبهات يا سيّد جابر، فهناك شهود أفادوا بأنك كثير التشاجر مع الضحية، ما كان سبب هذه المشاجرات؟»، قال: «أمور عائلية، يا حضرة الضابط».

سألته: «هل يمكن أن أعلمها؟»، فخرج عن وقاره، بدا كوحش نسي أن يرتدي ملابسه الرسمية، قال: «حياة الناس ليست من شأن الشرطة، حياتنا الشخصية ملك لنا لا تحشروا أنوفكم».

قلت رافعًا سبابتي في وجهه: «حسنٌ. قدّم حجة غياب مقبولة، وإلّا..» وغادرت.

كانت محطتي التالية سراي حجاج المنشاوي، كان خارج القرية بالفعل، كان ابنه الأكبر يتوسط المجلس، صبي في السابعة عشرة من عمره أو يزيد قليلًا، حاول الخروج في نفس اللحظة التي دخلت فيها إلى المضيفة، فقبضت على كتفه، سألته «إلى أين؟»، ردّ

بصوت خشن، وقد غطى العرق زغب شاربه الأخضر، قال: «سأتصل بوالدي، ألم تأت من أجله؟»، قلت: «وربما جئت من أجل غيره».

شعرت بالرجفة التي سرت في بدنه، قلت: «أنت خائف»، حاول حلّ قبضتي عن كتفه، وقال «لم أخاف؟، والدي نائب هذه الدائرة، وعائلتي وأنصارها بالآلاف». قلت: «ربما تخاف مما تخفيه؟»، مدّ يده لاإراديًّا إلى جيب جلبابه المنتفخ، فأمسكت بكفه، سألته: «ماذا تخفي في جيبك؟»، تدخل أحد الجالسين، قال بصوت حاسم «ضع ما في جيبك هنا على الطاولة كي يراه الضابط»، ظلّ الفتى قابضًا على جيبه، ثم تراخت قبضته، وأخرج هاتفه المحمول، وعلبة سجائر، فتشت العلبة، فوجدت ما توقعته، قطعة حشيش صغيرة مخبئة في أسفلها. لم يكن الظرف مناسبًا للقبض عليه، سيثير هذا المزيد من التوتر قبل يوم الغد المرتقب، فتركته وخرجت.

أطلقنا بعد العشاء عدة حملات أمنية استهدفت بيوت أصحاب السوابق الإجرامية من العائلتين، كلّ من اتهم سابقًا في قضايا سلاح أو جرائم قتل أو اعتداء، ألقي القبض عليه، قبيل الفجر كانت غرفات القسم وساحته الخلفية تكتظ بالمئات منهم.

بعد صلاة الظهر، تقدم شوقي مع قواته الطريق إلى المقابر. انطلقت الجنازة من سراي العمَّاري. كان رجال العائلة يحملون النعش المغطّى بالقماش الأخضر المُذهَّب، مرددين الأدعية المأثورة، يسيرون ببطء، وكأنهم لا يريدون لكبيرهم أن يرحل، سرت خلفهم بالسيارة، اقتربنا من بيوت المنشاوية، هاتفت شوقي كي يوقف الجنود صفين لتمر الجنازة بينهما، لكن الوقت باغتنا، وضع صندوق النعش على مقطورة مركونة، وانطلقت مئات الرصاصات في الهواء في نفس الوقت، علت أصواتهم «لا إله إلا الله.. المنشاوي عدو الله»، قال شوقي على الهاتف: «دعهم يفرغوا شحنة الغضب»، أجبته: «سينفجر الوضع».

جاء الردّ سريعًا من فوق أسطح بيوت عائلة المنشاوي، بضع زخات من الرصاص، مع هتافات مؤيدة لنائبهم، حاول شوقي مع رجاله تحريك الجنازة حتى إنّه دفع بأربعة جنود لحمل النعش والسير به، لكنهّم دُهسوا في المنتصف، استمر إطلاق الرصاص في السماء، ثم بدؤوا قذف الأحجار وزجاجات المولوتوف على الجنازة من كلّ مكان، تخايلت بصراخات نسائية سألت شوقي على الهاتف: «هل هناك نساء في المقدمة؟»، قال: «ليلى والمربية وهداية».

اندفعت وسط شظايا الزجاج المتفجّر والرجم المتعاقب، لمحت المربية على الأرض وعند رأسها بقعة دماء تتسع، وهداية بجوارها تحتضن ليلى وحولهما ثلاثة رجال فقط يدفعون عنهما، أشرت لهداية أن تنخفض، قلت لها بحركة يدٍ متعصبة «أكثر»، فركعت على ركبتيها، وانكفأت فوق ليلى.

الدخان الذي خلّفه الغاز المسيّل للدموع حجب الرؤية، لم أعد أرى هداية وليلى إلا كأشباح تظهر وتختفي، ناديت عليهما، جاء صوت هداية محشرجًا «نختنق»، سألتها: «هل تستطيعين التقدم نحوي؟»، قالت: «سأحاول»، ثم سمعت صرختها، أعقبها صوت ليلى مختنقًا يهتف باسمي، أطلقت الرصاص من مسدسي، اندفعت وسط مئات الأجساد المتلاطمة، وهناك على بعد خطوات من جسد المربية، وتحت شبورة من الدخان الأبيض كان جسداهما ملقيين على الأرض، ليلى وهداية معًا.

وجهها الحزين جدًّا لا يستحق

أن يوطأ بالأحذية.

(7)

أوقفنا مدير الأمن –أنا وشوقي– أمام مكتبه كتلميذين خائبين، لم يدعنا للجلوس، وانشغل بالردّ على الهواتف التي استمرت في الرنين. لمحت الصحف المنشورة أمامه، حادثة الجنازة تتصدر العناوين، تواطؤوا على وصف ما حدث بأنّه فضيحة أمنية، كان التوصيف دقيقًا، فسقوط عشرة قتلى من العائلتين بينهم نساء بالإضافة إلى مئات الجرحى والمصابين يجعل الأمر يبدو وكأنه حرب صغيرة وليس مجرد اشتباكات.

أجساد ليلى وهداية والمربية المطروحة على الأرض تدعسها أرجل الرجال منعتني النوم، رأيت كرجل شرطة العديد من الجثث، شاركت مرة في إخراج أفراد عائلة كاملة متفحمة من بيت محترق، عاينت بعيني أشلاء عمّال مصنع غدرت بهم ماكينته، فجذبتهم تحتها ونهشتهم، حملت بيدي جثامين أطفال غرقى ووضعتها بين يدي أمهاتهم دون أن أذرف دمعة، لكنّي كلّما تذكرت وجه ليلى وعليه آثار النعال يرتجف جسمي، وجهها الحزين جدًّا لا يستحق أن يوطأ بالأحذية.

انتبهت على صوت قدم شوقي يؤدي التحية العسكرية، جذبني من يدي وخرجنا. قال: «جيدٌ أنك لم تتحدث، سيكون علينا أن ننجز الكثير من الأمور في هذه المهلة القصيرة»، قلت: «يبدو أنّه فاتني الكثير»، فنظر نحوي ولم يفهم.

سبقته بخطوات، أوقفت سيارة أجرة، «إلى المستشفى العام»، هرول شوقي خلفي: «لن تفعل، مصابو العائلتين في نفس المستشفى، سيراك أحدهم، فتضع نفسك وتضع الأمن كلّه في مشكلة»، قفزت إلى التاكسي وطلبت منه أن ينطلق.

مررت على حضّانات الأطفال حديثي الولادة حيث ترقد حسناء، قابلت الطبيب المختص، رغبت أن أعرف ما إذا كانت هذه التشوهات التي تعاني منها مسؤولية الأم؟ أم أنها مجرد حظٍّ عاثر للطفلة؟

قال الطبيب «العيوب الولادية حالة شائعة أكثر مما يظنّ الناس، فحسب تقرير منظمة الصحة العالمية لعام 2004 ميلادية، فقد تسببت التشوهات الخلقية في وفاة نحو 260.000 طفل، هل تعلم كم يمثلون من المواليد الجدد؟» هززت رأسي نافيًا، فأجاب: «يمثلون نحو 7% من مواليد العالم. يا حضرة الضابط، هل تظنّ أن جرائم القتل الجنائية يمكن أن تصل لهذه النسبة؟».

رفعت كتفيّ وقلت «ليس لدي إحصاءات عن الجرائم الجنائية حول العالم، في الحقيقة أنا مهتم أكثر بالأسباب التي تنجم عنها مثل هذه التشوهات يا دكتور».

أدار الطبيب شاشة حاسوبه نحوي، كانت عليها نماذج لأطفال بتشوهات مختلفة، بعضها بسيط، وبعضها قاسٍ للغاية، وقال «العيوب الولادية مجموعة متنوعة من الاضطرابات التي تنشأ في مرحلة الحمل، وتنجم عن عيوب في الجينات أو لأسباب وراثية أو عوامل بيئية أو نقص في العناصر المغذيَة للأم والجنين»، سألته بعد أن أدرت شاشة الحاسوب مكتفيًا بما شاهدته «هل مرض الأم أثناء الحمل قد يكون من هذه الأسباب؟».

قال: «بالتأكيد، الأمراض المعدية التي تصيب الأمّهات مثل الزهري، الحصبة الألمانية، السكريّ، وكذلك نقص اليود ونقص حمض الفوليك من الأسباب الرئيسة لحدوث مثل هذه التشوهات، خاصة في بلادنا».

لم أصل بعد إلى النقطة التي يمكن أن تفيد التحقيق، ورغم أن الطبيب يقدم معلوماته ببساطة، رغبت أن أنجز في الوقت، قلت: «إذا سمحت لي. أريد أن أطرح سؤالًا مباشرًا»، رد الطبيب: «تفضل، بكل سرور»، سألته: «هل يمكن لسلوكيات الأم خلال فترة الحمل أن تسبب مثل هذه الأضرار بجسد الأطفال؟».

عضّ الطبيب على شفتيه، وارتفع جسده عن المكتب، تراءى لي كأنّه يريد أن يصرخ لكنّه استعاد هدوءه وقال «للأسف. غياب الوعي يؤدي إلى وقوع الأمهات في بعض السلوكيات الخاطئة أثناء الحمل، هذه السلوكيات تقود مباشرة إلى حدوث مثل هذه العيوب الولادية».

سألته: «هل يمكن أن تحدد لي بعض هذه السلوكيات؟»، أجاب: «خذ مثلًا تدخين الأم، أو وجودها في بيئة مدخنة، شرب الكحوليات، التعرض للجرعات الإشعاعية، التعرض للمواد الكيميائية، تناول الأدوية دون وصفة الطبيب المشرف على الحمل، الإنجاب في سنّ متأخر».

«ما فهمته يا دكتور أنّ هذه المشكلة تحدث في فترات مبكرة من شهور الحمل، فهل يمكن تشخيصها والتعامل معها قبل الولادة؟».

كان سؤالا غبيًّا –ربما– لكنّ الطبيب أجاب بأريحية كبيرة «لا شك أن الطبّ تطور بشكل ملحوظ في هذه النقطة، هناك الآن ما يعرف بالفحص الجيني ويجرى على نسيج الجنين داخل رحم الأم، وهناك أيضًا الفحص بأجهزة التردد الصوتي الفائق، والتردد المغناطيسي، وغيرها».

قلت: «هذا جيّد جدًّا، وكافٍ يا دكتور، هناك سؤال أخير»، هزّ رأسه مرحبًا، قلت: «هل نظامنا الصحي يوفر وسائل تشخيص العيوب الولادية في المستشفيات العامة؟»،

فأزاح مقعده إلى الخلف، ونهض، مدّ يده مصافحًا وقال مبتسمًا «يمكنني أن أجيبك عن هذا السؤال ولكن خارج مواعيد العمل الرسمية»، فصافحته وغادرت عابسًا.

توجهت مباشرة إلى ليلى وهداية، كانتا في غرفة واحدة، على سريرين منفصلين، بينهما مقعد جلست عليه أم جلال، أمّا ابنها فكان يجلس على طرف سرير هداية، ممسكًا بهاتفه الذهبيّ يشاهدان شيئًا ما ضاحكين. ليلى ملفوفة في الضمادات كمومياء، لا يظهر منها سوى عينين متورمتين وشفتين زرقاوين، لوّحت أمام وجهها بدمية جديدة اشتريتها، فرمشت، سألتها: «هل أحببتها؟»، فلم تجب. قالت أم جلال «الحمد لله الذي نجّاها» أضاف ابنها: «لا ندري كيف نشكرك يا حضرة الضابط».

قلت: «ما كان للنساء أن تذهب إلى الجنازة، يا جلال، تعرف مثلي ما يحدث في مثل هذه الظروف»، فالتفت ناحية هداية وقال «هذا صحيح، ولكن من يسمع يا سيدي؟».

بدت هداية أفضل حالًا، بضع سحجات في وجهها، ورضوض في باقي جسدها، مع اشتباه في كسرٍ في الساق. قلت: «حمدًا لله على سلامتك يا سيدة هداية»، رنّ الهاتف برقم محجوب، توقعت ما حدث، فخرجت من الغرفة.

- ما الذي تفعله يا حضرة الضابط؟ هل بلغ بك الاستهتار أن تزور أفراد عائلة العمّاري في المستشفى؟

- سيدي، إنها ...

- النائب حجاج المنشاوي، يصعد الأمر إلى أعلى المستويات، يتهمنا بمحاباة آل العمّاري، إنك تضرّ بسير القضية، وبسمعة الجهاز ككلّ.

- سيدي...

- ارحل فورًا من عندك، أنتما خارج هذه القضية من الآن.

ركلت صناديق القمامة المرصوصة على طول الطريق إلى السلم، وسط دهشة العابرين من المرضى والأطقم الطبية، شعرت بما تشعر به ورقة الشجر حين تقطفها يدٌ عابثة، تصرخ بصوت لا يسمعه أحد، ثم تسقط ببطء، ترى في سقوطها كلّ شيء معكوسًا، قبل أن تنحط على الأرض مستسلمة لدعس الأقدام.

ماذا لو عدت للقرية فوجدتها محيت من الخريطة؟ انشقت الأرض وابتلعتها، فتنجو ليلى من هذا المناخ المسموم، وأنجو من الحنث بوعدي لها.

على باب المستشفى وجدت شوقي منتظرًا، عرفت من نقر أصابعه على مقود السيارة ونظراته الشاردة حجم المشكلة، «لا أجني من وراء أفعالك سوى المصائب» قال عندما فتحت الباب وقذفت بجسدي إلى جواره.

قال شوقي: «ماذا سنفعل؟»، أجبته: «بل ماذا سيفعلون؟»، ضغط المكابح بعنف فكاد رأسي أن يرتطم بالزجاج الأمامي، قال: «اسمع، هذه قضيتك، أعرف أنك متحمس للقبض على الجاني من أجل الفتاة الصغيرة، يجب أن نكون بجوار الفريق الجديد».

أمام شرفة منزلي رُفعت صورة كبيرة لحجاج المنشاوي ضاحكًا، إنّه لؤم القرويين الذي لا يعرفه إلا من عاشرهم، أراد الرجل أن أرى ضحكته البلهاء كلّ صباح وكأنه يشمت في استبعادي من التحقيقات.

لا بأس.

في المساء طرقت باب منزل شوقي، حاملًا كومة كبيرة من غزل البنات الوردي الذي تحبّه زوجته ويتعمد عدم إحضاره، فتحت الباب، لم تصفق بيديها كطفلة كما اعتادت، لم تردّ التحية، أدارت ظهرها، ونادت عليه بصوت جاف.

قلت: «يبدو أن عائلة المنشاوي على قلب رجلٍ واحد»، فلم تردّ. قال شوقي بصوت خفيض «لا تكترث لها، متعصبة لعائلتها، أنت تعرف هذا». تسمّرت على باب المنزل الذي كان ملاذي الآمن منذ الطلاق، ألقيت نظرة من فوق كتف شوقي إلى بيته من الداخل، استمعت مرة أخرى إلى صخب أطفاله، شممت للمرة الأخيرة عبق البيوت الحيّة، وقلت «سأنتظرك في السيارة».

لماذا لم يخبره أحدٌ أنّه بابٌ إلى الزنازين

وليس باب الخروج من السجن؟

(8)

وصل الفريق الجديد المنتدب للتحقيق من وزارة الداخلية، استلموا جميع الملفات الخاصة بالقضية، كانوا يحملون تعليمات خاصة، نقلوها إلينا بصراحة قاسية؛ غير مسموح بالتدخل في عملهم مطلقًا تحت أي ظروف، كرروها ثلاث مرات (تحت أي ظروف).

كنّا نجلس –أنا وشوقي– في فناء قسم الشرطة كالهررة الكسول، نعدّ أعقاب السجائر، نرص أكواب الشاي الفارغة فوق بعضها، نصنع طائرات ورقية ونقذفها في الهواء في وجوه الجنود أو المتهمين أحيانًا.

حُجبت عنّا المعلومات وكأننا جواسيس، وضعوا ستائر على غرفة التحقيق، لم يقبلوا دعوتنا على الغداء أو العشاء كزملاء مهنة، قال شوقي مخاطبًا نفسه «لقد فقدنا سمعتنا كشرطيين للأبد». نُبذنا في كل محاولة للمشاركة أو التعريف بالجوّ العام للقرية والصراع بين العائلتين حتى أصبح لزامًا علينا كي نحافظ على صورتنا أمام الجنود أن نعتزل القسم نهائيًّا.

قال شوقي: «يبدون كمحققين في الجستابو بملابسهم الفخمة وشواربهم الكثّة»، أجبته: «ونبدو كأطفال في عطلة صيفية دون مصروف جيب»، ونحن نسير بجوار الترعة التي جفّ ماؤها فكشف باطنها عن جثث بهائم ميتة، وأحذية قديمة، وبقايا ملابس مهلهلة.

لم تسفر التحقيقات التي أجريناها في المستشفيات الحكومية والخاصة وعيادات أطباء التوليد في القرى المجاورة، وكذلك في المدينة عن معلومات حول والدة الطفلة المتروكة، بدا وكأن حسناء هبطت من طبق فضائي، اقترح شوقي أن نستدعي القابلات اللاتي يولدن النساء فكنّ أكثر لؤمًا من الأطباء، حتى إنّ بعضهنّ ادعين أنهن تركن المهنة منذ زمن.

فهمت أنّهنّ يخشين المساءلة القانونية، لأنهنّ يمارسن عملهنّ دون ترخيص من وزارة الصحة، حاولت طمأنتهنّ، لكنهنّ كنّ كالآبار المهجورة، فلم يبحن بكلمة واحدة.

التحريات التي أجريت داخل القرية أثبتت قطعًا أن كل النساء اللاتي كُنّ حوامل في الشهر الأخير وضعن أطفالهنّ بطرق شرعية، ويتمتع المواليد بصحة جيدة، والنساء اللاتي لهنّ أزواج يعملون في دول أخرى لم يلدن بعد.

وهذا أكّد لنا أن حسناء من خارج القرية، ربما من قرية في أقصى المركز شمالًا، وربما من القرية المجاورة، ليس ثمة إشارة واحدة تكشف لنا الطريق.

في أحد المساءات البليدة انضم شوقي إلى شرفة منزلي المطلّة على صورة حجاج المنشاوي الهازئة لنحتسي الشاي ونجترّ ذكريات كالطعام البائت، فنضيف إليها من خيالاتنا بهارات جديدة لتصبح أكثر إثارة. في اللحظة التي رميت فيها عقب السيجارة المشتعل على صورة المنشاوي فأخطأته، لمحنا أرتال سيارات الأمن تمرق من تحت أعيننا في صمت، لم يطلقوا السرينة، كانوا كجيش يشنّ هجومًا مباغتًا.

صحنا معًا: «وجدوا القاتل»، في الثواني التالية كنّا داخل السيارة إلى القسم المهجور إلا من بضعة جنود، وقفنا على الباب من الداخل، وعندما سمعنا أزيز المحركات الثقيلة، أطللنا برأسينا، كان بين أيديهم، يحيطونه من جميع الجهات، يرتدي جلبابًا رماديًّا وعلى وجهه الأسمر الكالح آثار صفعات حديثة.

قذفوه داخل القسم، وغلّقوا الأبواب، ثم سمعنا أصوات المتاريس تنصب في الخارج، وزمجرة الجنود المرعبة، شرعوا في تنفيذ خطّة الطوارئ، اعتلى بعضهم الأسوار، وبعضهم نقاط المراقبة، أضيئت الكشافات التي لم نستخدمها قط، سلَّطوا أشعتها الكثيفة على القرية فحوّلت الليل إلى نهار صاخب.

افتقدت شوقي أثناء مراقبتي لخطة التأمين التي لم يتشاركها معنا أحد، بحثت عنه فوجدته كسنجاب يبحث في غابة من الغرباء عمّن يمنحه بعض البندق، قال: «فرَّغوا الرسائل، ما قاله جلال صحيح تمامًا، جميع التهديدات أرسلت من هاتف واحد، مسجّل باسم ابن حجاج المنشاوي».

باب غرفة التحقيق يرتطم بشدّة، الزجاج يرتج وكأن ريحًا تضربه من الداخل، عددت عشر صفعات في كلّ مرة قبل أن أسمع صوت اصطدامٍ بالأرض، وكأن بناء قديمًا يتهدم.

الارتطام يسير من الباب بعرض الجدار في خط مستقيم، بين كلِّ نقطةٍ وأخرى مسافة لا تزيد على بضعة سنتيمترات، يمكنني أن أرسم في خط بيانيّ كلَّ نقطة ارتطام، محددًا حجم الألم، استنادًا إلى ارتفاع صوت الصرخات.

سألت شوقي «كم فردًا بالداخل؟»، قال مطرقًا: «أربعة ضباط، والصبيّ»، قلت: «سينتهون منه قبل الفجر».

فتحوا الباب، طالبوا بماء بارد، قال شوقي ضاربًا الحصى على الباب المغلق «هل يشمرون أكمام قمصانهم؟ أيعتقدون أنهم في ساحة ملاكمة؟»، قلت: «لن يصمد حتى إلى الفجر».

توقف الارتطام بالحائط، توقف اهتزاز الزجاج، هبّت نسمة لطيفة غير متوقعة، وسمعنا صوت الكروان. كان في أعين الجنود الرابضين بأسلحتهم على باب غرفة التحقيق ألف ألف سؤال؟ لن يجرؤ أحدهم يومًا على إفلاتها من عينيه.

فتح الباب، خرج قائد فريق التحقيقات ممسكًا بورقة من حافتها بأطراف أصابعه، قال، وعاد إلى الداخل «لقد اعترف يا سادة، قضي الأمر».

هزّ شوقي رأسه يمينًا وشمالًا، قال «هل تصدّق أنه القاتل؟»، سألته: «هل تصدق أنت؟».

خرجوا به بين جنديين، لمحت الدماء منحبسة في عينيه، وشفتيه مقلوبتين من الألم، ارتخى جسده عندما مرّ من أمامنا وكأنه كان قد يئس من رؤية وجوه مألوفة، رفع رأسه ليقول شيئًا، فدكّه عسكري من خلفه بمؤخرة السلاح، سقط من أيديهم، جرى نحو الضوء القادم من الباب في آخر الممر، فأطلقوا عليه النار في ظهره، سقط من جديد، زحف نحو الباب بضعة أمتار أخرى، قبل أن يهمد جسده للأبد.

لماذا لم يخبره أحدٌ أنّه بابٌ إلى الزنازين وليس باب الخروج من السجن؟

بعد جُمعة..

إنهم يرفضون الاعتراف بابن خيري العمّاري، لديّ جميع المستندات!

(9)

أزال حجاج المنشاوي صورته الهازئة من أمام شرفتي في نفس اليوم الذي أغلق فيه مكتب النائب العام قضية مقتل خيري العمَّاري لانقضاء أسباب الدعوى بوفاة المتهم، وأصبح الحديث عن القتيلين، العمَّاري وابن المنشاوي، من المحرّمات داخل جهاز الشرطة.

مررت على فيلا العمَّاري لأبلغ ليلى بالخبر، أطلّت من شباكها المسيّج من خلف فروع شجرة الصفاف، لوّحت لها، فتركت النافذة، ووجدتها بعد ثوانٍ تقف أمامي لاهثة، قالت: «هل أحضرت دميتي يا عمّ؟».

كان بين يديّ هدايا كثيرة، وفي عيني فرحة لرؤيتها تعاود السير على قدميها، لكنّها لم تقبل أن تفتح علب الهدايا، فتشت عن دميتها ذات اللون الفضيّ الشاحب، وعندما لم تجدها قالت «لماذا لم تحضر دميتي، أم أنّك لم تقبض على قاتل أبي؟».

رافقتها إلى داخل الفيلا، كانت هداية وجلال وأمّه ينتظرون في المضيفة القبلية، سألتها: «ألم يخبروك بما جرى؟»، قالت: «أهذه إجابة سؤالي؟ أتذكر وعدك لليلى يا عمّ؟».

أطبق الصمت كجاثومٍ على الغرفة، بدا وكأن كلّ شيء ينتظر الإجابة، المقاعد، الأبواب، النوافذ، الأكواب. لم تكن عينا ليلى فقط المعلّقة بشفتيّ بل عيون هداية وجلال وأمّه، وعيون الملائكة والشياطين الذين يتصارعون منذ خلق الإنسان.

قلت: «بالنسبة للشرطة، فقد أغلقت القضية، ابن المنشاوي القاتل الرسمي في نظر القانون»، ارتخت ملامح الثلاثة الكبار، أمّا ليلى فظلّت تلحّ بأسئلتها كما يفعل الأطفال، ولمّا امتنعت عن الإجابة قالت «حسنٌ، إذا كنت قد وفيت بوعدك لليلى فأحضر دميتها، وإن لم تف فأبقها عندك حتى تفعل» ثم ركلت كومة الهدايا وسارت إلى مقعد بعيد، خبأت فيه وجهها، عندما اقتربت منها كانت غارقةً في الدموع الصامتة كعادتها.

كنت أعلم يقينًا أنني لن أعيد الدمية إلى ليلى، وكيف أفعل؟ وقاتل والدها حرٌّ طليقٌ على الأرجح. لذا لم أذهب إلى السراي بعد ذلك، انقطعت علاقتي بليلى، إلا من دميتها الساكنة خزانة ملابسي، أزورها صباحًا ومساءً كشاهد قبر على وعد آخر حنثت به.

عانيت لاحقًا أعراضًا مرضية لم يسبق أن شعرت بها، لازمني جفاف الحلق طوال الوقت، لم يعد باستطاعتي التحدث لدقيقتين على الأكثر دون جرع كوب من الماء، كما صار النوم يداهمني في أوقات غريبة وأماكن أكثر غرابة، يداهمني ثقيلًا فأعجز عن

مقاومته أو تأجيله، فوجئت ذات صباح بأني نائم فوق ساقية مهجورة على أطراف القرية، لم أتذكر كيف ذهبت إليها، لكنّي أتذكر نظرات شوقي المرتبكة حين كان عساكر القسم يحاولون إفاقتي بسكب الماء فوق رأسي، قلت: «لا أعرف كيف وصلت إلى هنا»، قال: «لا يهمّ، عندي لك مفاجأة».

لم تنجح جملته القصيرة في رفع جفنيّ المتثاقلين، فضغط على كتفي، أكمل: «وجدنا أم حسناء»، انتبهت، ضخت كلماته الأخيرة الدماء إلى رأسي، نظرت في وجهه وإلى الجنود المتحلقين حولنا، قلت: «ماذا ننتظر؟ إلى السيارات، سأسمع التفاصيل في الطريق».

قال شوقي «كشفت التحريات التي نجريها حول أماكن بيع سلال الخوص الملونة أن هناك العديد منها في كلّ القرى المحيطة، لم نحصل منهم على معلومة مفيدة. إذ قال أصحابها إنّهم في الغالب يبيعون منتجاتهم جملة لأصحاب البازارات السياحية أو للفنادق أو لتجار معروفين.

كنت قد يئست من هذا الخيط كذلك عندما طرأ في ذهني أن القطار الذي عثرنا فيه على سلة الطفلة المتروكة يبدأ من أول مركز شمال المدينة وينتهي في قريتنا، ومن هنا فقد تكون الأم وضعت طفلتها في أول محطة، وعثر عليها في قريتنا لأنها آخر محطة للقطار.

فطلبت من مباحث المدينة مساعدتنا في التحرّي عن أماكن بيع السلال من أول مركز وحتى آخر مركز، وقد أفادت التحريات أن سيدة عجوزًا تبيع سلالًا مشابهة، زعمت أن امرأة حُبلى اشترت منها واحدة قبل أسابيع».

كانت بائعة السلال الملونة تجلس في الشارع العموميّ، في قلب الميدان، تحت شجرة فيكس ضخمة، عجزت الأرض أن تخفي جذورها، حولها خمس سلال فقط، كانت عجوزًا لدرجة أنّها عجزت عن سماع أصواتنا وسط أبواق السيارات وضوضاء المارة.

رفع شوقي صوته واضعًا كفّيه حول فمه «نحن من الشرطة»، فهزّت رأسها وقدمت له سلّة، قال شوقي بعد أن وضع فمه عند أذنيها «نبحث عن امرأة اشترت منك سلّة منذ أسبوع أو أكثر».

قالت: «بعت واحدة منذ أسبوع»، سألها شوقي مجددًا «لمن؟ هل تعرفينها؟»، هزّت العجوز رأسها موافقة، سأل شوقي: «من هي؟»، فأشارت إلى الرصيف المقابل للميدان، إلى موقف حافلات، «تنتظر الحافلة كلّ يوم» قالت البائعة وأشارت إلى عينيها، فهمنا أنها تشاهدها تركب الحافلة من هذا الموقف يوميًّا.

لم تقدم العجوز معلومة أخرى ولاح عليها التذمر بعد أن حجبها الجنود وسلالها عن عيون المارة، كانت تريد أن تتخلص منّا –ربما- فلم تجب عن أي سؤال جديد.

قال مسؤول الموقف «موقف الحافلات يستقبل أتوبيسات النقل العام التي تنقل المواطنين بين المراكز والمحافظات، في الحقيقة كلّ الحافلات تتوقف هنا حتى وسائل المواصلات غير الحكومية». قال شوقي: «نبحث عن إبرة في كومة قشّ»، سألت مسؤول الموقف «ماذا تقصد بوسائل المواصلات غير الحكومية»، أجاب: «أقصد سيارات الأجرة، وسيارات الهيئات والشركات، وسيارات الميكروباص التي تنقل العمّال إلى المزارع، و...».

قلت لشوقي: «سنجدها هناك»، قال وفي عينيه تلك النظرة الطفولية عندما تفاجئه استنتاجاتي «ماذا تعني؟».

قلت: «مما فهمته من الطبيب في المستشفى فإن أحد أسباب حدوث التشوهات الولادية، تعرّض الأم إلى المواد الكيمائية خلال الحمل، وإذا كانت الأم تستقل وسيلة مواصلات من هنا يوميًّا، فلا بد أنها تعمل في إحدى المزارع التي تستخدم المبيدات لمكافحة حشرات الزروع وآفات الثمار».

توجد خمس مزارع على أطراف المدينة، جميعها تعتمد على العمالة المؤقتة لرشّ المبيدات، تُجلب نحو 300 امرأة يوميًّا عن طريق مقاول الأنفار الذي يفضل أن يختار للعمل معه الفتيات والسيدات لانخفاض أجورهنّ مقارنة بالرجال.

تذكر مقاول الأنفار أن سيدة حُبلى سمراء البشرة عملت معه طوال الأشهر الماضية، حاول استدعاء اسمها فلم يستطع، قدّم أوصافًا تقريبية، لم تكن مفيدة تمامًا، فانخرطنا وسط النساء العاملات اللاتي رحبن بالتحدث إلينا من أجل دقائق يتخلصن فيها من ثقل أجهزة الرشّ، ويستجممن فيها بعيدًا عن حرّ الشمس، أفادت إحداهنّ أنها صاحبتها عدة مرات إلى شقتها.

حصلنا على عنوانها وأطلقنا السرينة في محاولة لاستباق الزمن، تسكن في حيٍّ عشوائيٍّ تمامًا، شقة في الدور الأرضي، تحت مستوى الشارع، طرقنا الباب، فلم يردّ أحد، أطلت إحدى الساكنات من دورٍ علويٍّ وقالت: «إذا كنتم تبحثون عن فردوس فقد رحلت منذ أيّام، تركت مفتاح الشقة والإيجار معي، وقالت إنها ستسافر لزوجها في الخليج».

لم نستدل على معلومات أخرى، كانت منعزلة عن جيرانها وزملاء العمل، كلّ ما نعرفه أنها قدمت من محافظة مجاورة للالتحاق بالعمل في المزارع، وظلّت تعمل حتى

فاجأتها الولادة في فجر أحد الأيام، فاستغاثت بنساء العمارة اللاتي ساعدنها لتلد في شقتها، ثم فوجئن بها ترحل ذات صباح.

تركنا خيط القضية في عهدة مباحث المدينة، طلبنا منهم المزيد من التقصي، ربما تركت الأم بيانات لها في عقد الإيجار أو أجرت معاملات رسمية في المدة التي قضتها، وعدنا إلى القرية.

تشاغلت بملاحقة السراب الذي يتراقص على أسفلت الطريق تحت أشعة الشمس الملتهبة، يختفي حين تقترب منه العربة، ثم يظهر في مكان آخر على الطريق كطفل مشاغب، ما إن تقترب منه حتى يفرّ من بين يديك.

أمام باب القسم تقف عربة حمراء حديثة تحمل لوحاتها أرقام المدينة، قلت لشوقي: «لدينا ضيوف»، نظر إلى لوحة أرقام السيارة ودار حولها دورتين ثم خبط يديه في جنبيه وقال «لم لا تتركنا المدينة وحالنا؟».

امرأة في منتصف الثلاثينيات، ممتلئة قليلًا، ترتدي ملابس عصرية أنيقة، جلست على الكرسي المواجه للمكتب، ووضعت طفلًا رضيعًا في حقيبة على الكرسيّ المقابل، كانت تنظر إليه واجمة عندما دخلنا.

تبادلت وشوقي النظرات عندما لمحنا الرضيع، لم يبد أنّ للمرأة علاقة بقضية حسناء، وهي بالتأكيد ليست من أهل القرية كما تشير هيئتها وأرقام سيارتها.

قال شوقي «كيف نستطيع خدمتك؟»، قالت: «رضوى المحمّدي، جئت للتقدم بشكوى ضد عائلة العمَّاري؟»، سألها: «ضد من تحديدًا في عائلة العمَّاري؟»، أجابت: «ضدهم جميعًا، إنهم يرفضون الاعتراف بابن خيري العمّاري، لديّ جميع المستندات القانونية».

لكلِّ قفلٍ مفتاح

(10)

تعرّفت على الحاج خيري العمَّاري عندما كنت أعمل مساعدة لشقيقي طبيب العيون في عيادته، كان يتردد علينا بين مدة وأخرى للكشف أو لضبط قياسات نظارته.

وفي إحدى المرات فاجأني شقيقي بأنّ الحاج يطلب الزواج منّي، أخبرته أنني لا أرغب في تكرار تجربتي الفاشلة الأولى لكنّه طلب أن أسمع منه أولًا.

عندما جلست مع الحاج خيري للمرة الأولى بمفردنا، شعرت أنّه صاحب همّ وليس مجرد رجل يبحث عن مغامرة عاطفية أو يسعى وراء نزوة جسدية. قالها صراحة في أولِّ لقاء «أمضيت سنوات شبابي في زواجٍ غير متكافئ. تزوجت من امرأة لم تجمعني بها عاطفة يومًا، كانت زوجة أخي، وتكبرني بأعوام كثيرة، تزوجتها بعد موته وفاء بتقاليد العائلة وأعرافها»، « ورغم إقامتي في العاصمة لمدد طويلة بمفردي، لم أنظر طيلة ثلاثين سنة إلى امرأة غيرها، حتى عندما تأخر حملها نصحوني بالزواج من أخرى، فرفضت، حرصًا على مشاعرها».

في تلك اللحظة فقط رفعت نحوه وجهي، واستمعت إليه بكل جوارحي، قال «رزقني الله منها بليلى قبل أن ترحل، فحافظت على ذكراها ثماني سنوات أخرى، لا أظنّ أنّي سأكون قليل الوفاء إذا فكرت بالزواج الآن!».

كان صادقًا كما ينبغي لرجل أن يكون، موثوقًا بحق، فقد اشترطت عليه أن أعيش في المدينة، وألا يجبرني على الحياة في القرية، فلم يطلبها منّي مرة واحدة ولو مزاحًا.

عندما عرف بحملي تحول هذا الشيخ الوقور إلى طفل طائش، كان يقفز فوق المقاعد، يرمي بالوسائد، يغني بصوت مرتفع حتى ظننت أنّه التاث، قال لي «سيكون ولدًا، فقد دعوت الله أن يرزق ليلى بأخ، وأعلم أنّه لن يخيّب رجائي».

ولدت في الليلة التي سبقت مقتله، اتصل أخي ليبشره، فأخبره أنّه أعدّ حقيبة السفر وسيكون عندنا في الصباح، حتى إنّه عرض له في كاميرا هاتفه جهاز أيفون ذهبيّ اللون، قال إنّه هدية اشتراها لي فرحًا بالمولود، لكنّه لم يأت.

علمنا بالخبر من وسائل الإعلام، أصررت أن أراه قبل أن يدفن، لكن أخي رفض أن أظهر في القرية قبل القبض على القاتل، ثم وقعت أحداث الجنازة المخيفة، فأحسست بالخطر على نفسي وعلى المولود.

كنت أتابع كلّ ما ينشر عن القضية في وسائل الإعلام دقيقة بدقيقة، وددت لو كانت لديّ القدرة للقبض على قاتله والقصاص منه بنفسي، لقد أخذ هذا المجرم منّي حلمًا

جميلًا، حرمني من رجلٍ لا مثيل له.

على كل حال لقد قمتم بواجبكم، وبقي أن أقوم بواجبي كذلك، أن أردّ الدين للرجل الذي منحني أسعد أيام حياتي، أن أرعى ابنته اليتيمة التي فقدت والديها في سنوات طفولتها الأولى.

هذا ما حاولت أن أُفهمه لكبار العائلة اليوم لكنّهم رفضوا فهمه، سأتغاضى عن النعوت التي نعتوني بها، فما زرعه خيري العمَّاري في قلبي من حبٍّ لن يثمر لهذه العائلة سوى خيرٍ ومودةٍ.

إنهم لا يعلمون أنني كنت أعيش بينهم بفضل رسائل الحاج اليومية التي كان يطلعني فيها على ما يحدث في القرية وفي العائلة.

لذلك أعلم بما كان بينهم وبين بعض من تنافس، أعلم كذلك أن شهرة الحاج خيري التي جعلته نائبًا منتخبًا للناس عقودًا من الزمن قد غرست بذور الغيرة والحقد في نفوس بعضهم، كان يراسلني من هنا من القرية على الهاتف بكلّ ما يحدث معه يومًا بيوم، ما زلت أحتفظ بجميع رسائله، أعرف أفراد عائلته فردًا فردًا، أعرف عنهم من عيون الحاج وآرائه فيهم، أعرف عن حزن ليلى الذي لم ينجح أحد في كسره بعد وفاة والدتها، وأعرف عن تمرد ناصر المراهق حتى في عمره هذا، وأعرف عن إخلاص جلال ومرضه، وأعرف عن جمال هداية ولطافتها، وأعرف عن عناد جابر وتصلب أفكاره، والمشاجرات التي تحدث بينهما وتنتهي بتهديدات حمقاء منه.

قال شوقي، ممسكًا رأسه بين يديه «توقفي من فضلك، نحن جميعًا في حاجة إلى فترة راحة»، فطلبنا الشاي بالنعناع، وشربناه في صمت.

قلت: «فلنبدأ بهدوء»، سألتها: «هل ذكر لك الحاج خيري أن جابر هدده قبل الحادثة؟»، أخرجت هاتفها، قلّبت في الرسائل، قالت: «هذه رسالة من الحاج قبل الحادثة بأيّام يمكنك أن تقرأها»، «هل تصدقين أن جابر ابن عمّي خرج من السراي اليوم يتوعدني بالأذى إن لم أتوقف عن التدخل في شؤونه، أليست حياته من شأن العائلة؟ أليست هذه عائلته كما هي عائلتي؟ ألا يجب أن يشعر بالمسؤولية نحوها مثلي؟ لماذا لم يفهم بعد أني أفعل ذلك بدافع الحرص على مصلحة الجميع» قرأ شوقي الرسالة بصوت مرتفع، ثم مرر إليّ الهاتف، اختلست النظر إلى رقم المرسل، كان رقم الحاج خيري بالفعل.

سألتها: «هل أخبرك ولو عرضًا عن سبب المشادة؟ ما الذي يحدث في حياة جابر العمَّاري ولا يتقبله الحاج خيري؟»، قالت: «الحاج لا يكشف أسرار الناس، وما كان

ليحدثني في أمور مثل هذه بالتفصيل، لقد ذكر المشادة لأنَّه كان متأثرًا من ردة فعل جابر، لم يتوقع أن يتوعده أحد بالأذى من داخل العائلة».

سألتها: «هل تسمحين لنا بإجراء محاولة وديّة مع عائلة العمّاري قبل كتابة المحضر؟»، قالت: «بالطبع، سأعود اليوم إلى المدينة، وسأترك لكم صورة عقد الزواج، وجميع بياناتي ليمكنكم التحرّي عنّي قبل الشروع في المحاولة».

كانت واثقة من نفسها تمامًا، اكتسبت بعض هيبتها من الحاج خيري العمَّاري، لاحظت أنّها تستخدم بعض مفرداته في الحديث، ولزماته في الجلوس، وكذلك بعض حركات يده، كانت متأثرة به كليًّة.

قلت لشوقي: «القضية فتحت من جديد، لدينا متهم لم يثبت إلى اليوم حجة غيابه، مع تهديد موثق من الضحية نفسه، وفي وجود دافع لا يمكن إغفاله. ما رأيك؟»، قال بإيجازٍ كرجلٍ حكيم «القضية مغلقة بأقفال لا نستطيع فتحها»، قلت: «لكل قفل مفتاح».

كان رجلًا غامضًا كما وصفه أحد أقربائه

(11)

كان جابر العمَّاري غائبًا خارج القرية كما اعتاد في الآونة الأخيرة، لا يعرف أحدٌ أين يذهب، ليس له زوجة أو أبناء، يعيش وحيدًا في السراي الكبيرة التي تركها له والده، لم نعرف من التحرّيات السبب الذي يحول بينه وبين الزواج، رغم أنّه قد تجاوز الخمسين من عمره. في فترة الشباب كان مستقيمًا وجادًّا كأغلب شُبّان العائلة، لا سيّما هؤلاء الذين يترقبون مستقبلًا لامعًا على المستوى الشخصيّ أو العائلي، لا تروى عنه حكايات مثيرة، أو بالأحرى لا يتذكر عنه الناس شيئًا، إذ وصف على الدوام بأنّه شخص انطوائي ومتكبّر.

لم يحظ جابر العمَّاري بالجماهيرية التي حظي بها ابن عمه القتيل، لم يقترب حتى منها، كان رجلًا غامضًا كما وصفه أحد أقربائه، وزاد بقاؤه أعزب من عزلته في القرية.

أفاد سائقه الخاص، أنّه يذهب إلى المدينة ثلاث مرات في الأسبوع على الأقل، يطلب منه أن يقلّه إلى الميدان الكبير، ليستقلّ عربة أجرة يذهب بها إلى مكان ما، عرض السائق أن يوصله إلى وجهته داخل المدينة، فنهره جابر، وطلب منه العودة إلى القرية.

يمتلك شقة فخمة في أحد أرقى أحياء المدينة منذ أكثر من عشرين عامًا، ومع ذلك بالكاد يعرفه بقيّة السكان، تذكره بعضهم بهيئته المهيبة، وصوته العريض، وعبوسه الدائم من خلف زجاج نظارته السوداء السميكة، لم يشتك منه أحد، قالوا إنّه منعزل، ولا يشعرون بقدومه أو رحيله.

راقبت الشقة ثلاث ليال متصلة، كان يعود مشيًا في وقت متأخر من الليل، ممسكًا عصاه من المنتصف بكلتا يديه، يسير بخطوات منتظمة وكأنّه يؤدي عرضًا عسكريًّا لجمهور من الكلاب الضالة، والقطط المنزعجة.

في اليوم التالي بدأت مراقبته منذ خروجه من العمارة، مشى مترجلًا مدة طويلة، لم يفعل شيئًا ملحوظًا سوى دخول كلّ مسجد صادفه في الشوارع التي سار فيها، كان الأمر لافتًا، يستمر في السير حتى تدركه صلاة العشاء، فيدخل المسجد ليصلّي، ثم يعاود السير المتمهل في الشوارع الخالية من الناس، فإذا رأى دورة مياه عمومية هرول إليها، لم يفوّت الدخول إلى دورات المياه، كما لم يفوت الدخول إلى المساجد.

لم تسفر مراقبة جابر العمَّاري ليلتين كاملتين عن رصد سلوكيات مريبة تتعلق بجريمة القتل، فيما يبدو ليس للرجل أصدقاء أو معارف في المدينة أو في القرية، لذا يقضي وقته في السير على غير هدى في الطرقات، يزور المساجد التي يقابلها في طريقة

وإن لم يكن وقت الصلاة، وعندما تغلق المساجد أبوابها، يزور دورات المياه العمومية بذات المواظبة، لم يتخلف عن الدخول إلى واحدة منهنّ طوال الطريق.

ربما توقف مرة أو مرتين لشراء بعض الفول السوداني أو اللب أو غيرها من أنواع التسالي، لا يتحدث مع الباعة، ولا يتجادل معهم، يمدّ يده بقطعة النقود، مشيرًا إلى الصنف الذي يرغبه، ثم يأخذ ما يعطيه له البائع دون مناقشة.

نقلت نتائج المراقبة إلى شوقي، حاولنا اكتشاف العنصر المشترك بين المساجد تلك الأماكن الطاهرة، ودورات المياه العمومية. لماذا يحرص جابر على هذا النمط من الزيارات؟ هل يستخدم المساجد ودورات المياه كأماكن عابرة للالتقاء بأشخاص لا يريد لأحدٍ أن يعرفهم؟ ما هي الأسرار التي يخفيها رجل في مكانته؟

في هذا المساء تلقيت مكالمة هاتفية من هداية تخبرني فيها عن عودة ناصر إلى الفيلا، كانت قلقة من هيئته، ووقع خبر مقتل عمّه على حالته العقلية، قالت إنّه في حالة ذهول مقلق.

اندفعت مع شوقي إلى الفيلا، خرج ناصر علينا بلحية غير مشذبة، وملابس متعرقة، يجرّ قدميه جرًّا يتناسب مع مظاهر الإعياء البادية على وجهه، قال: «سمعت أنكم تبحثون عنّي»، قال شوقي: «جئنا فقط لاستكمال الإجراءات».

قال: «لو لم أغادر القرية ما تجرؤوا على اقتحام السراي، هذا خطئي، ما كان يجب أن أترك عمّي في هذه الأيام»، سأله شوقي: «أين كنت بالمناسبة؟»، فطلب ماء مثلجًا من أحد الخدم، وتجرعه مرة واحدة، قال «خرجت من القرية مخمورًا بعد منتصف الليل، كنت أبحث عن خلوة أو مكان وسط الزراعات أنهي فيه سكري، فزوجتي ترفض أن أفعل ذلك داخل البيت، لم أشعر بنفسي إلا على الطريق العمومي، كان خاليًا من السيارات والمارة، فقدت بسرعة جنونية، شعرت أني أطير بالسيارة فوق الأرض، ربما حلَّقت بالفعل في السماء، لا أتذكر، كلّ ما علمته بعد ذلك أن قوة أمنية ظلت تطاردني حتى ساعات الصباح الأولى، وعندما نجحوا في توقيفي اشتبكت معهم، قاومتهم، فما كان منهم إلا أن حبسوني كلّ هذه المدة، خرجت اليوم بعد أن تحولت البلاغات المقدمة ضدي إلى النيابة، وحددت لي جلسة أمام القضاء»، نظر إلينا فلمح الشك في عيوننا من روايته البلهاء، «يمكنكم التأكد من شرطة المدينة، كنت هناك طوال هذه المدة».

جلست في مواجهته، كان وجهه ممتقعًا ومتعبًا، قال «لم أعلم أن السجن سيئ إلى هذه الدرجة»، قلت: «لكنّك مخمور الآن أيضًا»، هزّ رأسه مؤكدًا، قال: «القليل فقط، عندما أخبروني أنّ عمّي قُتل، لم أتحمَّل الخبر، شربت القليل فقط، سمعت أنّكم نجحتم في قتله، أقصد قتل من قتله»، ووضع وجهه بين كفيه وأغمض عينيه، بعد ثوانٍ قليلة

سمعنا غطيطه، ثم أفاق بغتة، «هداية تنتظرني، سأذهب إليها» قام مترنحًا فسقط على الكرسيّ، كان عاجزًا عن التحكم في نفسه تمامًا، فخرجنا وتركناه.

قال شوقي: «هل تصدق حجة غيابه؟»، قلت: «ما أسهل أن نتحقق منها؟»، قال شوقي: «إذا ثبتت حجة غياب ناصر، فلن يبقى على قائمة المشتبه بهم سوى عمّه جابر».

أكدت المعلومات الواردة من شرطة المدينة صحة أقوال ناصر كلمة بكلمة، وأثبتت الأوراق الرسمية ساعة وتاريخ القبض عليه، وكذلك ساعة وتاريخ إخلاء سبيله، لم يعد هناك سبب واحد للشك في ناصر، لقد كان في الاحتجاز قبل وبعد وقوع الجريمة بطريقة يستحيل معها اتهامه.

قال شوقي: «يجب أن نوقع بجابر العمَّاري، إنّه صاحب الدافع الوحيد الآن»، رددت عليه، «ما لم يكن هناك من فعلها من آل المنشاوي غير الفتى القتيل» فأشاح بوجهه غاضبًا.

كان ناصر أقرب المشتبه فيهم نظريًّا إلى ارتكاب الجريمة، في بعض الأحيان كنت واثقًا تمامًا من أنّه الفاعل، لم يكن هذا حدسي بمفردي، ولكن شاركني شوقي هذا الميل، أمّا الآن وقد قدم حجة غياب لا تحتمل الشكّ، أصبح سؤال «من القاتل؟» أكثر صعوبة.

هل حرص جابر العمَّاري على قتل الحاج خيري ليدفن معه سرًّا؟ أم أنّ الدافع كان إزاحة خيري العمّاري من الترشح باسم العائلة بالأساس؟ أم فعلها ابن حجاج المنشاوي فعلًا، واعترافه كان صحيحًا؟ أم فعلها غيره من عائلة المنشاوي ودفع الصبيّ الثمن؟ أم هناك دافع لم ندركه بعد، وفاعل مجهول يراقب فشلنا ساخرًا؟

في اجتماع كبار عائلة العمَّاري لمناقشة ادعاءات السيدة رضوى بدا على جابر العجلة، لاحظت أنّه جلس متبرمًا، ضم جلبابه بين ساقيه كما يفعل عادة، ثم عقد رجلًا فوق الأخرى، شارك بالكاد في المناقشات، وعندما كان يفعل، كان يوجّه دفة الحديث إلى إنهاء النقاش.

لم تستغرق الجلسة طويلًا كما ظننت، حسمت السيدة رضوى المناقشات لصالحها بما لديها من أوراق رسمية مثل عقد الزواج، وصورًا جمعتها بالحاج خيري في مدة زواجهما في عدة أماكن مختلفة، بالإضافة إلى شخصيّتها الرصينة التي جعلتها ندًّا لوجهاء العائلة.

قالت: «أشكركما، هذا أفضل بكثير من أن أدخل العائلة من باب المحكمة والقضاء، سيبقى هذا الأمر دينًا لكما في رقبتي».

قال شوقي «هذا واجبنا يا سيدتي»، وهززت رأسي مؤكدًا على كلامه، شكرتنا مجددًا وهمّت بالوقوف لكنّها جلست مرة أخرى وقالت «هل تتذكران عندما أخبرتكما أن الحاج خيري أحضر لي هاتف أيفون ذهبيًّا كهدية بمناسبة الولادة؟»، لم يبد على شوقي أنّه تذكر، قلت «أتذكر أنك قلت إنّه صوره بكاميرا هاتفه ليراه شقيقك، أليس كذلك؟»، قالت: «بالضبط يا حضرة الضابط، لقد بحثت عن الهاتف في جميع أنحاء السراي فلم أعثر عليه، وسألت عنه جميع العاملين فلم يره أحد، هل يمكن أن يكون القاتل قد سرقه بعد الحادثة؟».

سألتها: «أليس لدى جلال هاتف ذهبيّ؟»، قالت: «كلا، لدى جلال هاتف متواضع جدًّا، أسود اللون على ما أتذكر، إنّه شاب بسيط الحال».

في هذه اللحظة تسحّب جابر العمَّاري خلسة من بين الجالسين، وأخذ طريقه إلى خارج الغرفة بهدوء، قلت: «قدمي محضرًا بالسرقة، هذا ضروري جدًّا»، وأشرت إلى شوقي إلى أنّي سأضطر إلى المغادرة.

توقفت عربة الأجرة أمام مبنى متجهم
يبدو كسجنٍ مهجور

(12)

تسللت خلف جابر العمَّاري الذي صعد إلى عربته الخاصة بعد أن نغز السائق بطرف عصاه ليتحرك سريعًا، كانت وجهته إلى المدينة كما هو متوقع، توقف في الميدان الكبير، وانتظر السائق حتى غاب وسط الزحام، فأوقف سيارة أجرة ورمى بنفسه إلى جواره.

كان الليل قد تمدد فوق بيوت المدينة منذ قليل، فهدأت حركة المرور نسبيًّا، وهبّت بين الحين والحين نسمات رقاق كسرن حدّة المساء الصيفي، توقفت سيارة الأجرة أمام متجر بقالة، فنزل جابر بعد أن أوصى السائق بانتظاره بجوار الرصيف، بعد دقائق خرج وخلفه عدد من عمّال المتجر محمّلين بالبضائع التي حشرت في العربة بصعوبة.

بعد نحو ساعة من السير والتوقف لشراء البضائع المختلفة توقفت عربة الأجرة أمام مبنى متجهم يبدو كسجنٍ مهجور، اللمبات المحروقة فوق اللافتة حالت دون معرفة هويته، خرج جابر من عربة الأجرة وهاتفه على أذنه.

بعد دقائق سمعت صوت بوابة حديدية تزاح، صوتها الكئيب أكّد ظنّي أنّ هذا المكان ليس سوى مقرّ احتجاز بطريقة ما، خرج من المبنى رجلان وامرأة حملوا بعض البضائع، وعادوا للداخل بعد أن توارى جابر في ركن مظلم بعيدًا عن عربة الأجرة.

تكرر الأمر أربع مرات، تتوقف عربة الأجرة أمام مبانٍ في أماكن نائية من المدينة، يتصل جابر من هاتفه، فيخرج منها رجال أو نساء يحملون بعض البضائع، دون أن يظهر نفسه لهم.

انتصف الليل، ورأيت سائق السيارة الأجرة يتثاءب ضجرًا، كانت حمولته أوشكت على النفاد، عندما وضع جابر في يديه بعض المال، وترجل ليتحول تثاؤب السائق إلى ابتسامة كبيرة، بعد أن رأى النقود وما تبقى من بضائع في سيّارته.

انتظرت حتى بدأ جابر العمَّاري رحلة العودة إلى شقته سيرًا، تقدمت بالسيارة في حذائه، أطلقت البوق، فذعر، «هل تحتاج توصيلة يا سيّد جابر؟» سألته، فغمغم بكلمات لم أسمعها، ومدّ الخطى، فأوقفت سيارتي، ولحقته على قدميّ، قلت: «لماذا لا ترغب في التحدث؟ ماذا لديك لتخفيه؟».

قال دون أن يتوقف عن السير بخطوات واسعة أرهقتني مجاراتها «وعمّ تبحث بعد أن أغلقت القضية؟»، قلت: «أبحث عن العدالة، أبحث عن الحقيقة، ابن حجاج المنشاوي ليس القاتل على الأرجح»، توقف للحظة ثم عاود السير ولكن بخطوات

متمهّلة، تساءل: «ألم يعترف؟»، أجبته: «تحت ضغوطٍ لو وُضعت في مثلها لاعترفت كذلك».

قال: «ليس عندي ما أساعدك به»، وعاود السير بالخطى الواسعة مستغلًّا بنيته العملاقة، قلت بعد أن توقفت عن ملاحقته «أنت الاسم الأول على قائمة المشتبه بهم؟ ليس لديك حجة غياب عن يوم الجريمة»، «كما لديّ شهادة من القتيل نفسه بأنّك هددته قبل أيّام من الحادثة؟».

قال: «ما كنت لأقتل خيري أبدًا، إنّه صديقي الوحيد»، قلت: «لكنّك توعدته بالأذى حسب تعبير القتيل»، استدار نحوي، كان غارقًا في الدهشة، قال بصوت رائح: «كيف عرفت ذلك؟».

تقدمت خطوتين نحوه، قلت: «لم قتلته؟»، كانت يدي خلف ظهري، تلامس حافات المسدس، حسبت بعينيّ المسافة التي يمكن أن يستخدم فيها عصاه لإعاقتي، وتراجعت خطوة، لكنّه لم يفعل شيئًا، ضمّ جلبابه بين ساقيه، وجلس على حافة الرصيف، قال: «ما كنت لأقتل خيري أبدًا».

سألته: «إذن أين كنت وقت الجريمة؟»، قال: «كنت هنا، لطالما كنت هنا بعيدًا عمّن يعرفونني، أمشي في الشوارع وحيدًا»، قلت: «هل قتلته لتخلي الطريق لنفسك للترشح باسم العائلة؟».

ابتسم جابر العمّاري للمرة الأولى منذ أن تعرفت عليه، شقت الابتسامة وجهه الصارم بصعوبة، وكأنها في حرب مع هذه الملامح المتيبسة، قال وطوّح عصاه بيده «كان هذا فعلًا سبب خلافنا، لم نختلف حول شيء قط، لكننا اختلفنا حول الترشح للانتخابات».

قلت: «كنت تسعى للحصول على فرصة، هذا حقك»، فأدار وجهه نحوي وقال «على العكس يا حضرة الضابط»، «كان خيري يرغب في أن يتقاعد بعد هذه الدورة النيابية، قال إنّه سيتفرغ لتربية ليلى ومولوده القادم، وأنّه قد حان الوقت ليتولى غيره المسؤولية، كنت مقربًا منه، وكان يظنّ أني الشخص الأصلح لخلافته، لكنّي لا أحب المخالطة، ولا أطيق الوجود وسط الزحام، فكيف أصبح في مسؤولية اجتماعية كنائب برلماني، يستمع إلى طلبات الناس وشكاواهم، ثم يكافح في الدوائر الحكومية ومع المسؤولين لتنفيذها؟».

جلست بجواره على الرصيف، كنت سأطرح عليه أسئلة، لكنّه استوقفني بإشارة من يده، «نشأت في ظلّ خيري العمَّاري، كان نجمًا منذ صغره، حباه الله بميزات لا تجدها سوى في الزعماء والقادة، كان يمكنه أن يجلس مجلسًا طويلًا ليفصل بين طفلين

متخاصمين، أو رجل وزوجته، أو عائلتين بينهما ثأر ودم، كان بشوشًا، يجد وقتًا للجميع، ويتسع صدره لحكايات الجميع، وكنت على خلافه، أميل إلى العزلة، وأجد سعادتي في البعد عن الناس»، «كنت أتعجب كيف لا يتلوث خيري رغم أنّه يقذف نفسه كل يوم في وحل آثام الآخرين وشرورهم، فكان يقول لي من يخالط الناس ويصبر على أذاهم خيرٌ ممن لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم»، «كان يلقبني بقلب عائلة العمَّاري، كنت مرجعه إذا احتاج للمشورة حول أمور الفقراء والأيتام والأرامل والمطلقات، كنت أدلّه على بيوت المحتاجين في قريتنا والقرى المحيطة، لئن كان خيري نذر نفسه لمساعدة الناس بالعمل العام، فقد نذرت نفسي لمساعدة الناس كذلك، ولكن في الكتمان».

«في الآونة الأخيرة شعر الحاج خيري أنّ عمره ينقضي لغيره، فحتى فترة شبابه أمضاها مع زوجة أخيه المتوفى التي تكبره بأعوام، وفاءً بوعده لأبيه. صارحني كثيرًا بأنه يرغب أن يتذوق الحبّ، وأن يعيش ما تبقى له من حياة في خصوصية، لا يشاركه أحد ساعات نهاره وليله. رغب في الزواج من سيدة ناضجة تقدر ظروفه وتعينه عليها، فرشحت له أخت طبيب العيون» تحرك حاجباي إلى أعلى على غير إرادة مني، أكمل: «كنت قد عزمت على الزواج منها، فقدت وجدت فيها الكثير من المواصفات القياسية التي لم أجدها في غيرها، حتى إني فاتحت أخاها برغبتي، لكن عندما استشارني خيري في الزواج آثرته بها، وجعلت الطبيب يقسم يمينًا مغلظة أن يبقي رغبتي في الزواج من أخته سرًّا بيني وبينه، فكيف يمكن أن أكون قاتله؟».

حككت رأسي بطرف إصبعي، وقلت «هذا كلام مؤثر يا سيّد جابر، وما فعلته من إيثار الحاج خيري على نفسك من خصال الكبار، لكن هذا يظلّ بعيدًا عن الأدلة المادية، هل تفهمني؟» فنهض من على الرصيف، وقال: «أفهمك، هل تقبل دعوتي على كوب من الشاي في شقتي؟».

ركبنا في سيارتي، وعندما شرع في إعطائي إرشادات للذهاب إلى شقته فوجئ بأني أعرف الوصول إليها من أكثر من طريق، قال: «كنت تراقبني»، وهزّ رأسه متعجبًا.

في الشقة أخرج جابر العمَّاري مجموعة من الملفات الطبية، قال ملوحًا بملف في يده: «يا سيدي الضابط، هذا دليل براءتي، أعاني منذ مدة من مشكلات كثيرة في المثانة، تدفعني إلى دخول دورة المياه على فترات متقاربة، يجب أن أفرغ مثانتي كلّ دقائق قليلة، وإلّا يتدفق البول رغمًا عنّي، وفي ليلة الحادثة، خضعت لإجراء فحوصات في هذا المستشفى الخاص، دخلت بعد العشاء، وخرجت في اليوم التالي».

سألته: «ألهذا تدخل كلّ مسجد يقابلك على الطريق، وكلّ دورة مياه؟»، أغمض عينيه فشعرت بألمه، قال: «لهذا أفعل، كان هذا المرض من أهم الأعذار التي سأقدمها لخيري ليتخلّى عن فكرة أن أحلّ محله».

قبل عودتي إلى القرية مررت على عيادة طبيب العيون شقيق السيدة رضوى المحمّدي، سألته عن حقيقة ما زعمه جابر العمَّاري من رغبته في الزواج من أخته ثم تنازله عن الأمر لصالح الحاج خيري فأكّد ما قاله وأثنى عليه، قال: «لم أجد من هو أكثر منه مروءة»، كما أثبتت الأوراق الرسمية في المستشفى وإفادات الأطباء والممرضين أنّه كان تحت تأثير المخدر في ساعات الصباح الأولى، ويستحيل خروجه وعودته إلى القرية.

"رقم واحد؟" تساءل شوقي

(13)

لم أصادف في حياتي المهنية قضية تُفضي جميع مساراتها إلى نهايات مسدودة، قائمة المشتبه بهم خلت، خرج كلٌّ من فيها بطريقة ما، لم يعد هناك خيط واحد يقود إلى شخص بعينه. قُتل خيري العمَّاري الرجل الذي اتفق الناس على محبته كما قتل والده قبل أربعة عقود، فهل سيغلق ملف قضيته، دون معرفة قاتله؟

هل ستظلّ دمية ليلى تنظر نحوي كل ليلة بعينيها البلوريتين لتنعكس فيهما خيبة رجاء أخرى كالتي رأيتها في عيني منى بعد حادثة موت عمر؟

انشغلت في اليومين التاليين بالبحث عن أم حسناء، لم يكن لدينا الكثير للتحقيق فيه، اسمها الأول فقط (فردوس)، وبعض شذرات من المعلومات غير المجدية أفادتنا بها شرطة المدينة لاحقًا.

اقترح شوقي أن ننصب فخًّا للأم، فاتفقنا مع طبيب المستشفى على الظهور في أحد البرامج الفضائية الأكثر شهرة، وعرض حالة حسناء كنموذج على التشوهات الولادية، مناشدًا الأم أن تكون بجوارها في الأيام القادمة التي ستخضع فيها لعمليات جراحية خطرة.

أدّى الطبيب دوره ببراعة، كانت مناشدته صادقة، فغلبه البكاء، حتى إن الاتصالات توالت على البرنامج تعرض التبرع بالمال والعلاج للطفلة المسكينة، كنّا قد رتبنا حراسة دائمة حول غرفة حسناء، وجعلنا لهم تواصلًا مباشرًا مع الطبيب، وانتظرنا أن يحنّ قلب الأم على ابنتها.

كانت السيدة رضوى العمّاري قدمت بلاغًا رسميًّا بسرقة هاتف أيفون ذهبي، وأرفقت قسيمة الشراء التي عثرت عليها في أوراق زوجها القتيل وعليها الرقم التسلسلي للهاتف، كانت لدينا رغبة قوية لاستعادته، أو كما قال شوقي «إذا كنا قد فشلنا في القبض على قاتل خيري العمَّاري، فعلى الأقل نستعيد ذكراه الأخيرة لزوجته».

تواصلنا مع شركات الاتصالات، زودناهم بالرقم التسلسلي، وانتظرنا إشارة منهم عن المكان الذي يظهر فيه الهاتف على شبكاتهم.

في هذه الأثناء كاد الكمين الذي نصبه شوقي للعثور على أم الطفلة حسناء أن ينجح، بعد أن شك فرد الحراسة المكلف بمراقبة غرفتها في امرأة ترتدي ملابس عاملات النظافة تحوم حول المكان.

في التحقيقات ثبت أن المرأة تعمل بالفعل في المستشفى، وقالت إن سيدة سمراء مجهولة طلبت منها أن تضع مظروفًا به بعض المال تحت وسادة حسناء كتبرع لها.

ردّت شركتان من شركات الاتصال بأن الهاتف لم يظهر على شبكاتهما، لكن الشركة الثالثة أفادت بظهور هاتف أيفون بنفس الرقم التسلسلي في نفس النطاق الجغرافي للقرية، وبعد ثلاثة أيّام راسلونا بشكل رسمي بتقرير يحتوي جميع أرقام الهواتف التي أرسلت أو استقبلت مكالمات من الجهاز المذكور.

كان مفاجئًا أن الهاتف استعمل لإجراء واستقبال المكالمات إلى رقم واحد فقط طيلة المدة الماضية.

«تساءل شوقي: «رقم واحد؟»، قلت: «أكاد أحزر من صاحب الرقم، سأراهنك على وجبة كباب هذه المرة أنّه رقم هاتف هداية»، طابقنا الرقم على رقمها المسجل على هاتفي، فسقط شوقي على المقعد، فاغرًا فمه، غير مصدق.

قلت: «قبل أن تسألني كيف عرفت، جهز القوة للقبض على جلال»، فازداد فمه اتساعًا، في دقائق كنّا في سراي العمَّاري بالقوة الكاملة، تعجبت السيدة رضوى: «كلّ هذا من أجل هاتف؟» أجبتها: «وربما من أجل القاتل».

لم يظهر جلال مقاومة عند القبض عليه، اكتفى بقبلة على يد أمه، وإيماءة مهذبة للسيدة رضوى، وصعد بنفسه إلى عربة الشرطة، حشر نفسه بين العسكريين، وكأنه تدرب على هذا السيناريو طويلًا.

قلت وأنا أمسك بوجهه بيدي «أنت متهم بقتل خيري العمَّاري، قتلته ثم سرقت الهاتف، أليس كذلك؟»، لم يردّ، لم ينف التهمة عن نفسه، أضفت «هل تعلم أنك لم تقتل ربيب نعمتك وحسب، ولكن قتلت ابن المنشاوي أيضًا؟».

كنت في نشوة حقيقية، سعادة تغمرني لأول مرة منذ زمن، شعور بالقدرة والإنجاز لم يعكره سوى استسلام جلال، رغبت أن ينكر، أو أن يقدم حججًا فأسحقها بقدميّ وأثبت عليه الاتهام، لكنّه لم يفعل.

كان شوقي يراقبني صامتًا، لم يشترك في التحقيق، جلس بعيدًا يشاهد، فلمّا صرفت جلال إلى غرفة الحجز، قال «لم تفعل هذا؟ من أجل ليلى؟ أم من أجل منى؟»، أجبته: «لا أفهمك يا شوقي، ألست متحمسًا لإغلاق هذه القضية الملعونة بطريقة صحيحة؟».

نهض شوقي من مقعده، سار حتى أصبح وجهه في وجهي، وقال: «وهل هذه هي الطريقة الصحيحة؟ جلال لم يعترف بجريمة القتل، ولم ينطق كلمة واحدة منذ أن دخل القسم».

قلت: «سيعترف الآن أو لاحقًا»، قال: «إذن، سأحقق معه»، هززت رأسي لا مباليًا.

عاد جلال إلى غرفة التحقيق، صامتًا كما خرج، تكسو وجهه شبه ابتسامة، لم يكن فرحًا لكنّه بدا راضيًا، سأله شوقي: «هل قتلت خيري العمَّاري يا جلال؟» فلم يجب، حاول شوقي من زاوية جديدة: «هل سرقت الهاتف بعد العثور عليه مقتولًا؟»، فلم يردّ، «حسنٌ، أين كنت ليلة الجريمة؟ هل كنت في منزلك؟ هل يمكن لأمّك أو إخوتك أن يشهدوا بذلك؟» سأله شوقي وكأنه يغشش طالبًا بليدًا في امتحان، فهزّ رأسه نافيًا، قال: «لم أكن في بيتي ليلة الجريمة»، صحت: «نطق أخيرًا» فرمقني شوقي مغضبًا، قال شوقي: «لا بأس يا جلال، أين كنت؟»، فعاد إلى الصمت مجددًا، نكّس رأسه في الأرض، ولم يجب عن سؤال آخر بعدها.

رفض جلال أن يستقدم محاميًا، أقرّ بالتهم المنسوبة إليه وعلى رأسها قتل خيري العمَّاري مع التعمّد، لم يقدم أي مبررات لجريمته، قال «إذا كان هذا سيغلق ملف القضية للأبد، سأكون القاتل وحسب»، لم نفهم جملته، ولم يصرّح بعدها بكلمة واحدة.

كيف لهذا الرأس الصغير أن يكون
بهذا المكر؟

(14)

في مساء تلك الليلة، أخرجت دمية ليلى من خزانة الملابس، وضعتها على المنضدة المواجهة للباب، ربطت في عنقها أنشوطة من الحرير الأحمر، همست لها: «حان وقت عودتك يا صديقتي»، رنّ الهاتف، ظهر على الشاشة رقم هداية، قالت دون مقدمات «أرغب في مقابلتك لأمرٍ عاجل»، أجبتها: «سأمر عليك غدًا في الفيلا»، صمتت لحظة، وقالت: «أُفضل أن نلتقي بعيدًا، سأنتظرك في المدينة، في المقهى بجوار المحطة، التاسعة صباحًا» وأنهت المكالمة.

ماذا يمكن لهداية أن تريد بعد القبض على جلال؟ هل تملك أدلّة جديدة تدين أشخاصًا آخرين؟ ولماذا لم تكشف عنها منذ بدء القضية؟ هل جدّ شيء في حجة غياب ناصر تريد أن تكشف عنه؟

وصلت إلى المدينة مبكرًا، قبل الموعد المحدد، فوجدتها في الانتظار، لم يأخذ الحزن الظاهر على وجهها من جمالها، على العكس، زادها فتنة، حتى ذلك الشجن الذي سكن صوتها، جعلها أكثر إثارة.

قالت: «أعتذر عن هذا الموعد المفاجئ»، قلت: «أرجو أن يكون الأمر خيرًا»، حركت شفتيها المكتنزتين لتقول شيئًا لكنّها عوضًا عن ذلك، بحثت عن حقيبة يدها، وأخرجت منديلًا ورقيًّا، مسحت به الطاولة أمامها. قالت وهي تروغ بعينيها تتعقب الأماكن التي نظفتها: «ماذا إن أثبت جلال أنّه كان في مكان آخر وقت وقوع الجريمة؟».

مددت جسمي، وانحنيت على الطاولة، محاولًا قراءة ملامحها الدقيقة التي كستها مسحة من التوتر، قلت: «سألت جلال مئات المرات عن مكان وجوده وقت الجريمة فلم يرد»، قالت: «لأنّه إنسان عظيم، شخص يمكن أن يضحي بحياته لينقذ من يحب».

ارتخيت في المقعد، طلبت فنجانًا من القهوة وطلبت لها كوبًا من الليمون، قلت: «فهمت»، فرفعت وجهها، أكملتُ: «كُنتِ مع جلال أو كان معك ليلة ارتكاب الجريمة».

نكّست رأسها، قلت «ألحظ هذه العلاقة الودود بينكما، واستنتجت أن هناك خيطًا يجمعكما معًا منذ اليوم الذي حكيت فيه قصة الصفعة تحت شجرة الصفصاف، عندما رفضت أن تخبريني من اختار جلال وقتها لتكون فتاته شككت أنّه أنت، فسألته، فأنكر مثلك».

قالت: «لقد حكمت هذه الصفعة حياتي وحياة جلال، لقد جنّ ناصر عندما اختارني جلال لأكون فتاته، لم أعرف إذا كان فعل ذلك بدافع الحبّ أم التملك، أم رغبة في

حرمان جلال من شيء يحبّه، منذ ذلك اليوم حوّل ناصر حياتي إلى جحيم، كان يترقبني عند ذهابي إلى المدرسة وعند عودتي، يجلس أمام بيتنا ليترصدني في الدخول والخروج، أصبحت التحدي الأخير الذي يخوضه ضد جلال ولا يرغب أن يخسره».

رشفت من فنجان القهوة، ومددت لها كوب العصير، فأخذته بيدٍ مرتعشة، قالت: «كانت لنا فرصة، أنا وجلال، كان الحاج خيري العمَّاري يعده ابنًا له، ربما لو لم يطلبني ناصر للزواج لتزوجت من الشخص الذي أحببته».

سألتها «ولماذا لم يبادر جلال بطلب يدك؟»، أجابت: «جلال شخص خجول، يعرف أنّه من خارج العائلة، لم يظنّ يومًا أن الحاج خيري سيقبل أن يزوجه إحدى بنات العمَّاري»، قلت: «أكثرهنّ جمالًا»، ترقرقت دمعة في عينيها، فمسحتها سريعًا، قالت: «عندما طلبني ناصر للزواج، ذهبت إلى الحاج، ركعت عند قدميه، أخبرته بحبّي لجلال، فرفض أن يسمع كلمة مني، كان يريد أن يكسب ودَّ ناصر، أن يتقرب إليه، فقدمني كأضحية.

لكني لم أكن يومًا لناصر، لم أسلمه روحي ولا جسدي، في الحقيقة ننام في غرفتين منفصلتين منذ الزواج»، قلت: «لكنّي رأيت غرفة نومكما، لقد سمحتِ لنا بتفتيشها»، قالت: «كنت أعرف أن الشرطة ستأتي للسؤال عن ناصر، فلم أرغب أن يعرف أحد ما يجري بيننا، لقد حافظ ناصر على هذا الوضع أمام الجميع، فلم أشأ أن أفشي سره، لذا وضعت بعض أشيائي في غرفته لتبدو غرفة نوم، ليس أكثر».

كيف لهذا الرأس الصغير أن يكون بهذا المكر؟ ضبطتني أحدق إليها شاردًا، سألتها: «إذن استمرت علاقتك مع جلال بعد الزواج»، أعادت وضع فنجان قهوتي فوق طبقه الصغير، ثم رشفت من كوبها رشفة متعجّلة، قالت: «كان يتصل هاتفيًّا في الأوقات التي يختفي فيها ناصر، يتحجج بالسؤال عنه، وأتحجج بالسؤال عن شؤون العائلة، ثم نتطرق إلى موضوعات أخرى تبدو عادية في ظاهرها لكنّها كانت بمكانة المجس الدقيق الذي يستخدمه العلماء لاكتشاف حقيقة أحشاء حشرة».

«كنت وجلال نسير على حافات الأشياء بذات الخفة التي يسير بها البهلوان على الحبل الممدود في سماء خيمة السيرك، نضع أصابعنا على الأطراف، أطراف الأسئلة، أطراف الأجوبة، وأحيانًا أطراف الصمت الذي يقول ما تعجز عنه الكلمات، كنّا نعرف دون شك إلى أن سيصل بنا القفز على الحبل، كنّا ندرك أن زلة القدم إلى الهاوية محتومة، والمسألة تتعلق –فقط– بالوقت، ومع ذلك استمرت المحادثات، واستمر السير على الأطراف، كما استمر القفز على الحبل».

«لا يمكنك أن تسير على الحافات طوال الوقت، لا يمكنك أن ترقص عمرك كلّه فوق حبل ممدود في الفراغ، كان لا بد أن يجذبنا المركز يومًا، أن ينقطع الحبل فنهوي إلى

الأرض»، «هل كان تدبيرًا منّا؟ – لا أعرف، في إحدى الليالي التي غاب فيها ناصر كعادته، شعرت بأوجاعٍ شديدة، لم أجد من أتصل به سوى جلال، غامت أرقام جميع أفراد العائلة في عيني، رقمه فقط كان واضحًا، كان يجذبني كنداء مسحور من الهاتف. دخل جلال ليلتها الفيلا، ولم يخرج بعدها»، ورأيت دمعتين تسقطان في كوب الليمون.

«كان يتردد عليّ في الفترات الطويلة التي يغيب فيها ناصر، تعودت أن أصرف الخدم مبكرًا، فيبقى عندي طوال الليل، وفي الأيام التي يسافر فيها الحاج كان يبقى يومًا كاملًا أو أكثر داخل الفيلا، نبقى وحدنا وكأننا خلقنا في هذا الكون بمفردنا.

لا أريدك أن تحكم عليّ، أرجوك لست سيئة كما تظنّ، أنا امرأة ضعيفة وحسب، امرأة استخدمها الجميع ليربح، استخدمها ناصر ليربح حربه ضد جلال، واستخدمها الحاج خيري ليربح حربه مع ناصر» ثم وضعت رأسها على كفيها على حرف الطاولة، وغابت في وصلة من البكاء.

قلت: «سيدة هداية لست هنا لأحكم عليك، لكن كلامك هذا لن يفيد جلال في شيء ما لم يكن لديك دليل مادي، أو تعلنين ذلك أمام الجميع».

عادت إلى حقيبتها مرة أخرى، أخرجت علبة متوسطة الحجم، قالت: «هذه شرائط كاميرات المراقبة على أبواب الفيلا، والفناء المحيط بها، يظهر فيها جلال ليلة الجريمة، كما تظهر فيها أنت عندما كنت واقفًا بعدها فاتحًا قميصك، هل تتذكر؟ احتفظت بها بعد حدوث الجريمة ولم أحذفها».

غادرت هداية المقهى بعد أن أعادت القضية إلى المربع صفر، بريء آخر كان سيذهب ضحية، كان المسكين سيلتزم بالصمت ليحمي سمعة المرأة التي أحبها، سيقبل أن يوضع حبل المشنقة في رقبته، كي لا يحنث بوعد غير منطوق، وعهد كتب في أيام الصبا.

أُخلي سراح جلال لاحقًا بعد شهادة هداية وتقديمها شرائط كاميرات المراقبة، كما تنازلت السيدة رضوى عن محضر السرقة، واكتفت بمغادرته السراي، فأعدتُ دمية ليلى إلى مكانها في خزانة ملابسي. ليس مقدرًا لها أن ترجع إلى صاحبتها بعد.

عادت الأمور إلى طبيعتها، لم تشهد القرية بعدها أحداثًا بارزة، سوى تعامل ناصر الفظّ مع السيدة رضوى ومحاولاته المستمرة لإجلائها عن الفيلا.

سألت شوقي «هل حدث شيء في عائلة العمّاري؟»، فرفع عينيه مستنكرًا ثم قال: «أكثر مما حدث؟ ماذا تريد أكثر من جريمة قتل لا نجد لها حلًّا؟»، سألته: «ألم تسمع أي أخبار ولو بعيدة عن القضية؟»، رمى القلم الذي يكتب به من يده، وسألني: «ماذا في عقلك؟»، قلت: «لا شيء، فقط أخبرني إن سمعت شيئًا».

توالي الأيام بهذه الرتابة دون سماع أخبار من عائلة العمَّاري ينافي المنطق وطبيعة سير الأحداث، فجرائم الخيانة في القرى والمجتمعات المغلقة ينتج عنها ردود فعلٍ مبالغ فيها أحيانًا.

توقعت بعد ثبوت خيانة هداية لناصر أن يقتلها وفقًا لشخصيّته المتهورة، فإن لم يفعل فسيخرجها من فيلته بفضيحة انتقامًا لسمعته، أو يقتل جلالًا، أو يتشاجر معه وحسب إذا كان قد نضج فجأة وكفّ عن التهور.

أمّا أن تبقى هداية في فيلا ناصر تمارس خدعة الزوجة المخلصة طوال هذه المدة، ويعود جلال لممارسة حياته دون التعرّض له، فيخفي وراءه أسرارًا كبيرة.

صففت أوراق القضية على الأرض، وعلى الطاولة، وعلى الفراش، ثبت بعضها على الحائط، صغت ملاحظات حديثة نتيجة للمستجدات، أعدت قراءة التحقيقات مع الجميع في ضوء الأحداث الأخيرة، فاكتشفت خيوطًا جديدة غابت عنّا في سرعة توالي الأحداث.

استبعدت هذه المرة تورط أفراد من عائلة المنشاوي في قتل خيري العمّاري نهائيًا، فجميع الشواهد تشير إلى أنّها جريمة قتل عائلية، ليس هناك دليل واحد على اقتحام للسراي، أو اشتباك مع القتيل، أو ضجة تفسّر بوجود غريب في المضيفة البحرية ليلة القتل، كما أنّه لا يجرؤ أحد منهم على الدخول في عمق بيوت العمّارية في أيّام الانتخابات، وفي وقت متأخر من الليل، كان سيقتل قبل أن يقتل.

اتصلت على شوقي، أيقظته من النوم، طلبت منه أن ينتظرني، فوقف أمام باب بيته بالبيجاما الحريرية، يحمل أحد أطفاله الصغار على كتفه، قال: «هاتفك أيقظ هذا الصبيّ أيضًا»، داعبت الصبي النعسان، وقلت «هل تجد مبررًا واحدًا لبقاء هداية في فيلا ناصر بعد اعترافها بخيانته؟»، تثاءب بصوت مسموع حتى ظننت أنّه سيوقظ الجيران، ثم قال «لعلّه يحبها لدرجة أنّه يعجز عن هجرها».

سألته: «وماذا عن جلال؟ هل يحبّه؟ لذلك لم يقتله أو يتشاجر معه بعد أن علم أنّه خانه مع زوجته وعلى فراشه؟»، قال: «لا يحبّه بالتأكيد، كانت فرصة للتخلص من غريمه العتيد لأسباب مشروعة»، قلت: «إذن ماذا يحدث يا شوقي؟ أيّ سرّ يضم هؤلاء الثلاثة؟».

جلسنا على عتبة الباب، فرشت الأوراق التي دونت فيها الملاحظات على الأرض، قلت: «هناك دافع للجريمة، لم نكتشفه بعد»، قال شوقي: «وربما عدة دوافع»، قلت: «صحيح، لعلّ هذا المفتاح الصحيح لحلّ اللغز، مجموعة دوافع يا شوقي».

«كما لدينا مجموعة من الثغرات، لم نسدّها بعد» قلت مشيحًا بالورق في وجهه، قال: «مثل ماذا؟» محاولًا كتم تثاؤب جديد، قلت: «قالت أم جلال في إفادتها يوم التحقيق إنها طلبت من الحاج خيري تنظيف المضيفة في النهار السابق للجريمة، فرفض الخروج منها، لكننا عندما عاينا الغرفة وجدناها مرتبة، ومنفضة السجائر فارغة، أتذكر ذلك جيدًا، كان كلّ شيء وكأنّه نظف منذ قليل»، ثم أكملت: «إذن مَن حرص على تنظيف المضيفة بعد الجريمة؟ ولماذا؟»، قال شوقي: «ربما لمسح البصمات».

قلت: «لا يا صديقي، القاتل الذي يريد إخفاء آثاره لن يهتم بترتيب الأوراق، وتلميع الأباجورة، وتفريغ منفضة السجائر، وتنظيف المكتب؟».

قال شوقي واضعًا رأسه على الباب، «ماذا يدور في عقلك؟»، قلت: «اصعد لتكمل نومك، أظنني وجدت طرف الخيط».

في الصباح الباكر تركت رسالة لشوقي على الهاتف بأنني سأكون في المدينة طوال النهار، إذا جدّ في أمور عائلة العمَّاري جديد، فليخبرني على الفور.

استمتعت في الطريق إلى مستشفى الأمراض النفسية بالزراعات الخضراء، ونسمات الهواء الخالية من عوادم السيّارات، والصمت الجليل الذي يكسو المكان فيبدو وكأنه جزيرة معزولة في زجاجة. هل يجب أن يفقد المرء أعصابه تمامًا، أو تنهار صحته النفسية إلى الحضيض كي يحظى بهذا الجمال؟

قادتني الممرضة إلى غرفة مدير المستشفى، عرفته بنفسي، وأخبرته أني جئت في استشارة تتعلق بإحدى القضايا المعلقة، كان سؤالي محددًا «هل يمكن أن ينشغل قاتل بشيء ما عن الهروب من مسرح الجريمة؟»، قال الطبيب: «معذرة، لم أفهمك جيدًا. هل يمكن أن تضع الأمر في شكل عمليّ؟».

اقتربت بنصفي الأعلى من المكتب، وقلت: «اعتدت أن يكون همّ المجرم الأساسي الهروب من مسرح الجريمة فور الانتهاء مما جاء من أجله سواء كان قتلًا أو سرقة أو غير ذلك، لكن ماذا إذا كانت هناك قوة تسيطر على المجرم تدفعه للبقاء وتنظيف المكان قبل هروبه؟ ماذا يمكن أن يكون الدافع النفسيّ في هذه الحالة؟ هل يصدر هذا الفعل عن شخص واعٍ؟».

قال الطبيب «الآن فهمت، أقرب فكرة لما تقوله هي ما يقع فيه مرضى (OCD)»، سألته: «وما هذا المرض يا دكتور؟».

أجاب: «هذا اختصار لمرض يمكننا تعريفه باللغة العربية على أنّه اضطراب النظافة القهري، الأشخاص المصابون بهذا الاضطراب يعانون من أفكار ملحّة حول بعض الأمور المتعلقة بالنظافة والترتيب والتخلص من القاذورات والجراثيم ونحوه».

قلت: «لم أفهم»، قال الطبيب: «المصابون بالاضطرابات القهرية يشعرون أنّهم مدفوعون للقيام ببعض السلوكيات غير الإرادية أحيانًا، مثل إعادة تنظيم الأشياء المنظمة، إعادة غسل اليدين، إعادة تنظيف الملابس المنظفة، مثل هذه السلوكيات وسيلة لتخفيف التوتر والقلق اللذين يسيطران عليهم».

سألته: «جيد يا دكتور، لكن لماذا يصاب الناس بهذا الاضطراب؟»، أجاب: «ليس هنا سبب واحد، قد تكون عوامل وراثية أو ضغوطات عصبية، أو نقص في بعض الهرمونات، أو التعرض لحوادث مؤلمة بدنيًّا أو نفسيًّا».

قلت: «هل هناك أنواع من هذا الاضطراب يا دكتور؟»، أجاب: «بالتأكيد هناك صور متعددة، منها الخوف من الجراثيم، والخوف من الفوضى، والخوف من إيذاء النفس أو الآخرين» قاطعته قائلًا «ماذا عن هذا قبل الأخير إذا سمحت، الخوف من الفوضى؟».

أجاب: «في هذه الحالة يشعر المريض أنّه مدفوع إلى الحفاظ على الأشياء بترتيب معين، إذا تحرك شيء من مكانه، يشعر المريض بالقلق والتوتر، ويوقف ما فيه يده سريعًا لإعادة الترتيب على ما كان عليه».

سألته: «إذا عدنا للسؤال الأول، فإن ذلك يعني أن المجرم قد ينشغل عن الهروب من مسرح الجريمة بترتيب الأشياء وتنظيفها مدفوعًا بهذه الوساوس القهرية؟»، قال الطبيب: «بالطبع، إنها أمور قهرية يا سيدي».

اتصلت بشوقي مستفسرًا عن أخبار عائلة العمَّاري، كان لا يزال نائمًا، فتح الهاتف وأغلقه دون أن يجيب، ثم أعاد الاتصال بعد دقائق، قال بتثاؤب: «لم يحدث شيء»، قلت: «أحتاج إلى من يقذف بحجر في البحيرة»، قال: «هل ستقذف في البحيرة؟» أجبته: «ربما سيكون على أحدنا فعل ذلك».

"هل ستنجو؟" سألته، "بالدعاء، ربما"

(15)

عندما عدت إلى القرية كانت عربة السيدة رضوى الحمراء أمام القسم، كانت تضرب بيديها المكتب أمام شوقي، قالت: «حياتي وحياة ابني في خطر»، «لا تحدثني عن الأعراف والتقاليد».

ألقيت التحية عليها، فلم تردّ، استفسرت من شوقي عمّا يحدث، فأوجز لي الأمر، قال وهو يمط شفتيه: «لقد باع الحاج خيري قبل وفاته كلّ ما يملك إلى السيدة رضوى، ليس هذا فحسب بل نقل الوصاية على ليلى إليها، لقد ألغى وصاية ناصر رغم أنّه الأخ غير الشقيق».

قالت ويدها لا تكف عن الضرب على المكتب «عندما يعرف ناصر أنّه سيعجز عن التصرف في إرث ليلى بسبب الوصاية، سوف يقتلني، أعلم ذلك»، «عليكم حمايتي، أليست هذه وظيفتكم؟».

قال شوقي: «يمكننا أن نحضر ناصر، ونأخذ عليه تعهدًا مكتوبًا»، فهززت رأسي موافقًا.

حاول شوقي نقل خبر تعديل الوصاية بألطف الطرق التي رأيتها في حياتي، ومع ذلك فلم تفلح كلماته المعسولة في إخماد بركان الغضب الذي اشتعل في صدر ناصر الذي أعماه الغضب فتهجم على السيدة رضوى أمامنا في قسم الشرطة، ولولا أن حلت بينه وبينها، لفتك بها ولم يبال.

استغلت المرأة الموقف بدهاء، طالبت بإثبات واقعة التعدّي عليها في محضر رسمي، أصرّت أنها ستطلب شهادتنا في المحكمة، هدأتها، وأخرجت ناصر إلى غرفة أخرى.

قلت لناصر: «اسمع، ما فعلته غير مقبول تمامًا، أنت تسبب لنا الحرج، لو فعلها غيرك لحبسته».

قال: «إنها تسرقنا، هذه المجهولة التي لا نعرف لها حسبًا ولا نسبًا، سوف تدير ممتلكات أمّي وأختي، بأي حق هذا؟»، أجبته: «بحق القانون، كتب لها زوج أمّك الراحل جميع ما يملك، وأوصى بها لتدير إرث ليلى حتى تبلغ سنّ الرشد. احذر يا ناصر أن يحدث لها شيء، ستكون المتهم الوحيد في هذه القضية».

أرخى ناصر رأسه، أخرج زفيرًا حارًّا من جوفه، وقال: «أشكرك يا حضرة الضابط، أقدر لك ما فعلت»، قلت: «الآن سنذهب إلى الغرفة الأخرى، ستكتب تعهدًا رسميًّا بعدم التعرض للسيدة رضوى بسوء. هل اتفقنا؟»، قال: «ما تأمر به سأنفذه».

أبدى ناصر مرونة غير متوقعة عندما عاد إلى الغرفة التي تجلس فيها السيدة رضوى، وقف أمامها كحيوان الكوالا الوديع، «سيدتي، أنت فرد من العائلة الآن. وستكون أختي ليلى وإرثها في أمانٍ بين يديك»، «أرجو أن تغفري لي عصبيتي، وستجدينني نعم الأخ لك في داخل العائلة» قال.

ربّت شوقي على كتفي، لمحت في عينيه نظرة انبهار لقدرتي على ترويض الوحش في دقائق، أخفيت ضحكة كادت أن تنفجر مني، فغطيت وجهي بكفيّ وقلت «لنقرأ الفاتحة، تيمنًا بهذا الاتفاق».

اصطحبت السيدة رضوى ناصر معها في سيارتها إلى السراي، قال شوقي: «ربّ ضارة نافعة، لقد نجحنا أخيرًا في نزع فتيل الأزمة داخل عائلة العمَّاري»، قلت: «ليس بعد يا صديقي».

اتصل مساء اليوم طبيب الأطفال المتابع لحالة حسناء، أخبرني أنها ستخضع في الغد إلى مجموعة عمليات جراحية معقدة في محاولة أخيرة لإنقاذها، أوضح الطبيب أنها تعاني من مشكلات خطيرة ليس فقط في شكلها الخارجيّ ولكن في أجهزتها الداخلية، قال: «الجهاز الهضمي تحديدًا».

في ساعات الصباح الأولى كنت على باب الحضّانة التي ترقد فيها حسناء، سُمح لي بإلقاء نظرة عليها أثناء تحضيرها للعمليات، كانت عيناها تشكو، لا أعرف، مم؟، ربَّما من كلّ شيء.

انتظرت بضع ساعات أخرى، حتى أخرجوها من باب خلفي، لحقت بالطبيب إلى غرفته، سألته: «هل ستنجو؟»، قال: «بالدعاء، ربما».

انغلقت الدنيا في وجهي بعد خروجي من المستشفى، لم أرغب في العودة إلى القرية، حجزت غرفة في أحد فنادق المدينة، واختليت بالأفكار التي تقرض عقلي كفئران خبيثة، لم تفارقني صورة ابني عمر غارقًا في دمه وقد فارقت لمعة الحياة عينيه البريئتين فجمدتا كقطعتي زجاج، تزاحمت في أذني كلماته الصغيرة ملتبسة الأحرف، كان يخلطها بالضحكات حين أعدو خلفه متصنعًا عجزي عن اللحاق به، دبدبة قدميه، رائحته، نعومة شعره على وجهي حين يعانقني.

بأي ذنب يعذّب هؤلاء الأطفال؟

هل ستنجو حسناء؟ – قال الطبيب «بالدعاء، ربما».

بحثت عن أقرب مسجد إلى الفندق، توضأت وغبت في صلاة طويلة، لم أدع فيها سوى لحسناء، لم أعرف هل أدعو لها لتحيا على هيئتها هذه؟ أم أدعو لها بالموت ليريحها من آلامها وما ينتظرها من شقاء؟ فدعوت لها في النهاية بالرحمة.

أسندت ظهري إلى حائط المسجد، الحوائط مزيّنة بأسماء الله الحسنى، من العجيب أن ثلاثة أسماء من أسمائه سبحانه، متعلّقة بحسناء، تأتي مرتبة خلف بعضها، (الخالق، البارئ، المصوّر)، لم أفهم ما الحكمة أن تقع عيناي على هذه الثلاثة؟ ثم يأتي بعدهنّ اسمه سبحانه (الغفّار)، ما أحوجنا إلى المغفرة!

قلبت في الهاتف، لا يزال رقمها مسجلًا باسم (أم عمر)، كما أحبَّت أن تُنادى دائمًا، طنين متصل، هل حذفت رقمي، كما حذفتني من حياتها؟ ردّت، «منى» همستُ، لم تُجب، لم أسمع سوى تردد أنفاسها في الهاتف، قلت: «أنا حسّان، أجابت بعد وقت «أهلًا حسّان»، نفدت مني الكلمات، قلت في محاولة لتحضير ما هو أفضل «كيف حالك؟»، أجابت: «بخير، الحمد لله»، قلت متلعثمًا: «كيف حالك؟ أقصد كيف تسير أمورك؟»، قالت: «حسّان، لقد تزوجت، ورزقني الله بولدين، شكرًا على اتصالك» وأغلقت الخط.

كان دبيب أقدام المصلّين يزداد مع ارتفاع صوت المؤذن، غشيني شعور بالراحة، ابتسمت للمرة الأولى اليوم، نجحت منى في تخطّي أزمة موت عمر، تزوجت وأنجبت، لا شك أن ولديها، يعوضانها بقدر كبير عن فقد ابنها الأول، سجدت لله شكرًا.

كانت أزمتي مركبة من ثلاثة عناصر، عمر ومنى ونفسي، أعلم أنّ عمر في مكان أفضل من هذه الحياة القاسية، وأنّ رحلته القصيرة في الدنيا، كانت كزيارة ضيف خفيف، حمل السعادة ثلاث سنوات لأبويه، ثم انتهت مهمته. مشكلتي الحقيقية في مشاعر الذنب تجاه منى، كان تحطمها بعد الحادثة أكبر من قدرتي على الصفح عن نفسي، أمّا الآن وقد تجاوزت الأمر بالزواج والإنجاب، فربما أمامي فرصة للعفو عن هذا السجين الذي في داخلي.

لقد أصبحت من مجاذيب السرايا

(16)

لم يناقشني شوقي عندما طالبت بوضع حراسة سريّة حول سراي العمَّاري، قال: «لقد أصبحت من مجاذيب السرايا»، أوصيت الأفراد الذين اخترناهم بعناية فائقة بالكتمان، وحسن التخفي، كان تواصلهم معنا مباشرة، شوقي في النوبة الصباحية، وأنا في النوبة الليلية.

طيلة الأسبوع التالي تلقّيت اتصالات هاتفية منتظمة من ناصر، شعرت أنّه يسعى لتوطيد العلاقة الوديّة التي نشأت يوم التعدي على السيدة رضوى في قسم الشرطة، فسمحت له بالتمدد في هذه المساحة، تلقيت رسائله الساخرة على الهاتف، ورددت عليها بمثلها، تشاركت معه أخبار السيارات القديمة وأسعارها التي لا أعرف عنها شيئًا، التقينا مرتين أو ثلاثًا، لقاءات بدت وكأنها مصادفات ليس أكثر، فلم أكشف له عن شكوكي حول هذه الموافقات الغريبة.

كنت أكمن كلّ يوم منتظرًا أن يحدث شيء ما، أن يسفر الحجر الذي قذف في البحيرة عن تحريك الماء الراكد، رأيت في عيني شوقي ذلك السؤال الذي لم يطرحه قط، «لماذا وضعنا الحراسة السرية حول فيلا العمَّاري؟»، وقدرت فيه أنّه لم يسأله علنًا.

في صباح يومٍ ما استقبلت مكالمة أخرى من ناصر، يدعوني لحضور مزاد لبيع السيارات القديمة في المدينة، اعتذرت، فلم يكن لديّ الرغبة في مرافقته وقتًا طويلًا لكنّه ألح كطفلٍ، رحلت بعد أن أكدت على شوقي أن يرفع درجة الحذر هذه الليلة، سألني: «ماذا سيحدث؟»، أجبته: «مجرد توقع».

انطلقنا بعد العشاء إلى المدينة في سيارة ناصر، جلب معه مشروبات مرطّبة، ومأكولات «أعدتها هداية بيديها» قالها متفاخرًا، رأيت ذلك الطعم الذي يدليه من طرف صنّارة الصيد، فتجاهلته، طلبت منه أن يرشح لي سيارة لشرائها، فانهمك في تفحص السيارات المعروضة بإخلاص حقيقي، سألني: «كم ميزانيتك؟»، قلت ضاحكًا: «ما يكفي لشراء سيارة تقلني من البيت إلى القسم والعودة».

انقضت أغلب ساعات الليل في المعرض، وأثناء العودة، رنّ هاتفه، اهتز مقود السيارة في يديه، لكنّه لم يجب، في نفس اللحظة رنّ هاتفي، قال شوقي: «حاولوا قتل السيدة رضوى»، «لم تنجح الحراسة السريّة في القبض عليه، لكن السيدة رضوى أصابته بطلقة من مسدسها»، وأنهى الاتصال.

قال ناصر: «ما رأيك لو قضينا بقية السهرة في كافتيريا قريبة؟»، ابتسمت وأجبته: «سيكون عليّ الاستيقاظ مبكرًا غدًا».

على مدخل القرية أخبرته بحادثة الاعتداء على السيدة رضوى، فأظهر انزعاجًا كبيرًا، طلبت منه أن يقلني إلى سراي العمَّاري لمتابعة التحقيقات، قال: «يجب أن أذهب أيضًا للاطمئنان على ليلى والسيدة رضوى».

الجنود يطوقون السراي من جديد، شوقي يقف في الحديقة واضعًا يديه على خصره، هرول ناحية السيّارة، اتسعت عيناه عندما وجدني جالسًا بجوار ناصر، قلت: «كنّا معًا في المدينة»، ففغر شوقي فاه، سألت شوقي: «كيف حال السيدة رضوى والطفلين؟»، أجاب: «بخير، إنّها سيدة شجاعة حقًّا، لقد طاردت المجرم حتى اضطرته إلى القفز من الشرفة، ثم أطلقت عليه الرصاص، فأصابته في قدمه».

قال ناصر: «هل هرب؟»، أجاب شوقي متحسرًا «للأسف»، ربّت على كتفه وقلت «لم يذهب بعيدًا، يا صديقي».

قلت: «سيّد ناصر، أحتاج توصيلة أخرى إذا سمحت»، أجاب: «بالطبع»، وعاد للجلوس خلف المقود، أسررت لشوقي في أذنه، وقفزت إلى جوار ناصر، سألني: «إلى أين؟»، قلت: «هل يمكنك أن تستضيفني على العشاء؟»، قال ناصر ضاحكًا «هل ستترك التحقيق لتأكل؟»، أجبته: «بضع شطائر من تلك التي تعدها السيدة هداية»، فأوقف السيارة، وقال: «لكن هداية قد تكون نائمة الآن»، قلت: «لا أظنّ، فلا بد أنها سمعت بحادث الاعتداء»، ظلّ صامتًا طوال الطريق، حاولت أن أعيد سؤاله عن أسعار السيارات المستعملة، لكنّه لم يكن متحمّسًا للإجابة، فاحترمت رغبته.

عندما ولجنا إلى فيلّته المنظفة بعناية، استرخيت على أقرب مقعد، كان الصقيع الذي يضرب أرجاء المكان كما هو منذ الزيارة السابقة، قلت: «سيّد ناصر، طلب أخير قبل العشاء»، نظر نحوي فشعرت بثقل هذه الدعوة على نفسه، قلت: «دلّني على موضع أجهزة تسجيل كاميرات المراقبة»، تساءل: «لماذا؟»، أجبته: «أظنّ أنّني بحاجة لتفحّصها».

أخذني إلى حاسوب في غرفة ملحقة بالبهو، كان مخصصًا لتسجيل شرائط كاميرات المراقبة الخارجية، قلت ويدي تقبض على ذراعه «ليست هذه يا ناصر، أريد تسجيلات كاميرات المراقبة داخل الفيلا»، شعرت بالدم يندفع في عروقه، قال: «ليست لدينا كاميرات مراقبة داخلية، لماذا سأضع كاميرات داخلية، وهناك عدد منها تحيط بالفيلا؟».

جررته من رقبته، لففت به الفيلا، قلت: «لديكم كاميرات مراقبة داخلية، يا زوج عصفور الكناري المنمنم»، وجدت حاسوبًا محمولًا في أحد الأدراج، طلبت منه أن يفتحه، كان عليه برنامج تسجيل الكاميرات، عدت بالتواريخ المحفوظة إلى ليلة مقتل خيري العمَّاري، أدرت التسجيل، شاهدت جلالًا يدخل الفيلا، بعد أن فتح الباب

بمفتاح، جلس في البهو وحيدًا، استلقى على المقاعد وحيدًا، شرب الشاي وحيدًا، شاهد التلفاز وحيدًا، نام وحيدًا، وفي الصباح، خرج مغادرًا كما دخل.

قال شوقي مستندًا بذراعيه على باب الفيلا «وجدناها»، كانت في بيت جلال كما توقعت، جرحها بليغ، أرسلتها إلى مستشفى المدينة تحت الحراسة».

قلت: «ناصر أيضًا، سوف يقبل ضيافتنا الليلة»، قال: «لم أفعل شيئًا، كنت معك طوال الليل، أنت حجة غيابي»، فجره شوقي من ياقة جلبابه، وقذف به في عربة الشرطة.

بعد جمعتين..

من قال لا شيء يحدث يوم الجمعة؟

(17)

تحسّنت حالة هداية في المستشفى، فأدلت باعترافات تفصيلية، كشفت فيها أن ناصر كان العقل المدبر وراء الجريمتين، قتل خيري العمَّاري والتعدي على السيدة رضوى المحمّدي.

جاء في الاعترافات أن ناصر ابتكر في المرة الأولى حجة غياب محكمة، وأنّ الاعتداء على كمين الشرطة كان مدبّرًا كي يحبس، فيثبت تغيبه عن القرية وقت وقوع الجريمة بطريقة لا يمكن الطعن عليها.

قالت إن ناصر رغب أن يكرر نفس اللعبة عندما قرر التخلص من السيدة رضوى المحمّدي، فحرص على وجوده طوال يوم الجريمة الثانية بصحبتي في المدينة، وأنّه أقسم لها أنّها المرة الأخيرة، وسوف يطلقها بعد ذلك طلاقًا بائنًا، كي تتزوج الشخص الذي أحبته.

اعترفت هداية بقتل خيري العمَّاري؛ لأنها كانت الوحيدة البعيدة عن الشبهات، فاختارها ناصر لتنفذ الجريمة في مقابل تطليقها، والموافقة على زواجها من جلال لكن بعد ظهور زوجة مجهولة للحاج خيري، وزعمها الوصاية على ليلى ماطل في تنفيذ وعده لها، وحاول تكرار نفس اللعبة، دون أن يعرف أنّ السيدة رضوى كانت تنتظرهم كلّ ليلة، وتحت وسادتها مسدس أعطيته لها.

كما اعترفت بسرقة هاتف أيفون الذهبي وإهدائه إلى جلال، وأنّها من طلبت منه أن يبيت في فيلتها تلك الليلة، لتضمن له حجة غياب تحميه إذا حامت حوله الشبهات.

وقفت على باب سراي العمَّاري وفي يدي دمية ليلى الشاحبة، راقبتها تضع شقيقها الرضيع في حجرها، وتغنّي له بصوت عذب. رفعت وجهها عندما سمعت صوتي، لوحت بيديها، وألقت نظرة على دميتها، ثم انصرفت إلى أخيها تلاعبه منهمكة.

بجوارها كانت السيدة رضوى العمَّاري، كما أصبحت تلقب في القرية، تجلس تحت حائط المضيفة البحرية بنوافذها المثلثة ذات الزجاج الملون، تلقي بحبّ القمح إلى العصافير الحائمة حولها.

قلت: «أشكرك يا سيدة رضوى على تعاونك، كانت شجاعة منك أن تقبلي هذه المخاطرة، وتزعمي نقل الوصاية إليك، عرضت حياتك للخطر لكن الله سلّم»، رفعت السيدة رضوى سبابتها اليمنى إلى السماء، قالت: «نحن لا نخاف الناس، ما دمنا في حماية ربّ الناس».

في الأسابيع التالية اتخذت عائلة العمَّاري قرارًا تاريخيًّا باعتماد السيدة رضوى كأول مرشح للعائلة من النساء، لم يكن مستغربًا بالنسبة لي أن يتزعم هذا القرار المهندس جابر العمَّاري نفسه.

غادر شوقي مع أسرته إلى المصيف أخيرًا، وبقيت وحيدًا أستمع من شرفة منزلي إلى المآذن تبث قرآن الجمعة، وأرقب الفراغ الذي كانت تشغله صورة حجاج المنشاوي، عندما توقفت سيارة تحمل لافتة أخرى، صحت فيهم: «ماذا تفعلون؟»، كانوا في بدلات رسمية، وربطات عنق سوداء، رفعوا صورة جديدة أمام الشرفة تمامًا، كان حجاج المنشاوي يضحك بوقار هذه المرة، وقد سبق اسمه لقب الوزير.

الهاتف يرنّ

«أم عمر» ظهر اسمها على الشاشة، «حسّان، أحتاج إليك، أحد ولديّ مختطف، هل تساعدني؟».

هززت رأسي وتمتمتُ، «من قال لا شيء يحدث يوم الجمعة؟».

***